الفصل الأول

النثر السياسي

أ- الفتن والمنازعات السياسية.

ب- نثر الجهاد.

obeikandl.com

obeikandl.com

أ- الفتن والمنازعات السياسية

كانت الأحوال السياسية مضطربة في مصر والشام في بداية هذا العصر، إذ انقسم أمراء مصر والشام على أنفسهم وجرى الاقتتال فيما بينهم، فواكب النثر هذه الفتن، وصورها ونددبها.

فقد وصف أسامة بن منقذ في كتابة «الاعتبار» في فصل كامل الفتن التي شاهدها في مصر منذ وصوله إليها سنة (٥٣٩هـ/١١٤٤م) حتى مفارقته لها سنة (٥٤٩هـ/١١٥٤م)، فصور الفتنة التي حدثت بين فرق الجيش الفاطمي، والفتن التي جرت بين الوزراء المتعاقبين على الوزارة في مصر آنذاك، وكيد الخلفاء الفاطميين لهم، وفتك الوزراء بالخلفاء[١] ومن ذلك وصفه لمقتل الخليفة الفاطمي الظافر[٢] على أيدي الوزير عباس وابنه نصر لأنه حاول تحريض نصر على قتل أبيه، وتولي الوزارة من بعده، حيث قال: «... وعباس قد قتل الظافر، وعزم على أن يقول: إخوته قتلوه، ويقتلهم به، فخرج ولد الظافر، وهو صبي محمول على كتف أستاذ من أستاذي القصر، فأخذه عباس فحمله، وبكى الناس، ثم دخل به وهو حامله إلى مجلس أبيه، وفيه أولاد الحافظ: الأمير يوسف، والأمير جبريل، وابن أخيهم الأمير أبو البقى. ونحن في الرواق جلوس، وفي القصر أكثر من ألف رجل من المصريين، فما راعنا إلا فوج قد خرج من المجلس إلى القاعة، وصوت السيوف على إنسان، فقلت لغلام لي أرمني: أبصر من هذا المقتول! فمضى ثم عاد، وقال: ما هؤلاء مسلمون! هذا مولاي أبو الأمانة جبريل قد قتلوه، وواحد قد شق بطنه يجذب مصارينه، ثم خرج عباس وقد أخذ رأس الأمير يوسف تحت

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص ٦-٣٣.

(٢) هو الخليفة الفاطمي الظافر بالله بن الحافظ لدين لله، تولى الخلافة الفاطمية بمصر سنة (٥٤٤هـ/١١٤٩م) وهو في السابعة عشرة من عمره، وقد دبر مؤامرة ضد وزيره علي بن السلار فقتل سنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م): ثم قتله نصر ابن وزيره عباس بن أبي الفتوح الصنهاجي سنة (٥٤٩هـ/١١٥٤م). (الاعتبار: ص ٦-٩، ١٨-٢٣).

إبطه ورأسه مكشوف، وقد ضربه بسيف والدم يفور منه، وأبو البقى ابن أخيه مع نصر بن عباس، فأدخلوهما في خزانة في القصر فقتلوهما، وفي القصر ألف سيف مجردة!!».

ويعلق أسامة على هذا المشهد المروع قائلاً: «وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التي مرت بي، لما جرى فيه من البغي القبيح الذي ينكره الله – تعالى – وجميع الخلق»(١).

أما في شمال بلاد الشام، فقد انهمك عماد الدين زنكي – فضلاً عن جهاد الإفرنج – في توحيد الإمارات المجاورة له تحت لوائه(٢)، وبعد مقتله، تابع ابنه نور الدين مهمته في توحيد بلاد الشام، تمهيداً لمنازلة الإفرنج، فضم كثيراً من المدن والحصون إلى مملكته وحاصر دمشق غير مرة لتعاون حكامها مع الصليبيين، حتى تسلمها صلحا سنة (٥٤٩هـ/١١٥٤م)(٣)، فأصبحت جميع البلاد الإسلامية في الشام بيده(٤).

وقد وصف ابن الأثير حال دمشق – آنذاك – وابتهاج أهلها بانضمامهم إلى مملكة نور الدين، وخلاصهم مما كانوا يعانون منه من خوف من الفرنج، ومن اضطراب في الأمور قائلا: «... فلما كانت الأمور بها هكذا (يعني مضطربة) خاف أهلها وأشفقوا من العدو، فلجأوا إلى الله – تعالى – ودعوه أن يكشف ما بهم من الخوف، فاستجاب لهم وأذن في خلاصهم مما هم فيه، على يد أحب عباده إليه وأحسنهم طريقة، وأمثلهم سيرة وهو الملك العادل حقاً نور الدين محمود...»(٥).

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص٢١.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص٣٧-٣٩، وأبو شامة: الروضتين: حلمي: ج١: ق١: ص٧٧-٧٩.

(٣) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق: ص ٣٠٤-٣٠٥، وأبو شامة: الروضتين: حلمي: ج١:ق١: ص٢٣٧ – ٢٤١.

(٤) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص١٠٨.

(٥) أبوشامة: الروضتين: حلمي: ج١: ق١: ص ٢٣٦.

وعندما شبَّ النزاع في مصر بين الوزير شاور وخصمه ضرغام استعان شاور على خصمه بنور الدين محمود فأرسل حملة لمساعدته، فلما تحقق النصر لشاور على خصمه، غدر بجند نور الدين واستنجد بالفرنج ضد الجيش الذي نصره، وقد وصف القاضي الفاضل معاناة الجيش النوري بقيادة أسد الدين شيركوه، الذي حاصره في دمياط جيش شاور، وجيش الفرنج معاً قائلاً: « . . . ونحن نقاتل العدوين الظاهر والباطن، ونصابر الضررين المنافق والكافر، حتى أتى الله بأمره، وأيدنا بنصره، وخابت المطامع من المصريين والفرنج . . . . »[١].

ثم توالت حملات نور الدين على مصر لحمايتها من الفرنج حتى قتل شاور. وقد وصف الوهراني سوء أحوال الدولة الفاطمية بمصر في أواخر أيامها قائلاً: « . . فقطعت حبال الدولة عن ربطها، وضعف رجالها عن ضبطها . . . ، وسبق إليها رجال الفرنج، فصيروها كرقعة الشطرنج، يجوسون خلالها ويتفيأون ظلالها . . . ، فانتدب لها من بني شادي[٢]، الأسد الهصور والملك المنصور[٣] فرماها بهمته، وقصدها برمته، فدافعوه ومانعوه، واستعانوا عليه بالأسود والأحمر، والملوك من بني الأصفر[٤]، فقتلهم وكسرهم وأخذ أبطالهم وأسرهم، ولم يزل فيها بين الطارق والمنتاب، والساكن والمرتاب إلى أن طواها طي السجل للكتاب . . . »[٥].

وبزوال الدولة الفاطمية في مصر تحققت أمنية عزيزة على المسلمين هي وحدة مصر والشام، فابتهج المسلمون بذلك، وكتب القاضي الفاضل عن صلاح الدين إلى ديوان الخلافة ببغداد مبشراً ومهنئاً بذلك فقال « . . . وقد توالت الفتوح غرباً ويمنا وشآما، وصارت البلاد بل الدنيا، والشهر بل الدهر حرما حراماً، وأضحى

---

(١) أبوشامة: الروضتين: ج ١ : ق١ : ص٦١٩ .

(٢) بني شادي: نسبة إلى شادي بن مروان والد نجم الدين أيوب، وأخيه الملك المنصور أسد الدين شيركوه (مفرج الكروب: ج١ :ص٣).

(٣) يعني أسد الدين شيركوه.

(٤) يعني الروم والفرنج.

(٥) منامات الوهراني ومقاماته ورسائله: ص ٤ –٥ .

الدين واحداً بعدما كان أدياناً، والخلافة إذا ذكّر بها أهل الخلاف لم يخروا عليها إلا صماً وعميانا، والبدعة خاشعة، والجمعة جامعة، والمذّلة في شيع الضلالة شائعة...»[١].

وعندما آل أمر مصر إلى صلاح الدين نقض إقطاع بعض المصريين فثار عليه مؤتمن الخلافة[٢] وأيدته جماعة كبيرة من السودان، فقضى على هذه الثورة[٣]، ثم اجتمع أنصار الدولة الفاطمية، ومن ضمنهم الشاعر عمارة اليمني في سنة ٥٦٩هـ، واتفقوا فيما بينهم على إعادة الحكم الفاطمي، والاستعانة بالفرنج من أجل تحقيق ذلك[٤]، وفي سنة ٥٧٠هـ ثار الكنز[٥] في أسوان على صلاح الدين، فقضى على ثورته[٦].

وبعد وفاة نور الدين تفرقت الكلمة في بلاد الشام، واختلفت أهواء الأمراء وتشعبت آراؤهم، وطمع الأعداء في بلاد الشام من كل جانب، فكتب صلاح الدين رسالة إلى الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود من إنشاء الفاضل حاثاً على الوحدة، ونبذ الفرقة والخلاف، حتى ترتد مكائد الأعداء إلى نحورهم، فقال: «... فالله الله أن تختلف القلوب والأيدي فتبلغ الأعداء مرادها، وتعدم الآراء رشادها، وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها إلى أن أعطت قيادها، فكونوا يدا واحدة، وأعضاداً متساعدة، وقلوباً يجمعها ود، وسيوفاً يضمها غمد، ولا تختلفوا فتنكلوا، ولا تنازعوا فتفشلوا... فالعداوة محدقة بكم من كل مكان، والكفر مجتمع على الإيمان....»[٧].

---

(١) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص ٤٩٦ - ٤٩٧.

(٢) هو مملوك كان متحكماً بأهل القصر الفاطمي آنذاك (أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٤٥٠).

(٣) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص ٤٥١.

(٤) ابو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق٢: ص٥٦٠-٥٦٢.

(٥) هو رجل مقدم من المصريين، كان يقيم في أسوان، وقد ثار على صلاح الدين محاولا إعادة الدولة الفاطمية فقضى عليه صلاح الدين وعلى ثورته (أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٦٠٠ - ٦٠١).

(٦) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص ٦٠٠-٦٠٢.

(٧) أبو شامة الروضتين: ج١: ق٢: ص٥٨٧.

ولكن أمراء الشام المحيطين بالملك الصغير الصالح إسماعيل ظلوا مختلفين متنابذين، فاغتنم الفرنج هذه الفرصة، فهاجموا بانياس، وهددوا بالاستيلاء على دمشق، وقطعوا على المسلمين قطيعة، فأرسل صلاح الدين من مصر رسالة إلى قاضي قضاة دمشق شرف الدين بن عصرون عبر فيها عن رفضه لهذا الصلح الذي يغضب الله ورسوله، ويضعف المسلمين ويبدد أموالهم في دعم العدو بدلاً من جهاده[١].

وشكا صلاح الدين من أمراء الموصل وحلب الذين استعانوا بالفرنج ضده مع أنه يعمل من أجل مصلحة المسلمين، وغدروا به مراراً، في رسالة وجهها إلى الخليفة العباسي فقال: « . . وقد علم الله أنا لهدنتهم كارهون، وفي مصلحة أهل الإسلام وفي مصالحهم راغبون، ولكنا بلينا بقوم كالفراش أو أخف عقولاً، وكالأنعام أو أضل سبيلاً، إن بُني معهم فعلى غير أساس، وإن عُدد الغدر منهم فهو أكثر من الأنفاس. . . » ثم بين أنّ هدفه هو وحدة المسلمين والتقرب إلى الله بطاعته ؛ فقال: « . . وما يريد الخادم إلاّ من تكون عليه يد الله وهي الجماعة، ولا يؤثر إلاّ ما يتقرب به إليه وهو الطاعة، ولا يتوخى إلاّ ما تقوم به الحجة اليوم، ويوم تقوم الساعة . . . . »[٢].

ووصف الكتاب - أيضاً - محاولتي الاغتيال اللتين تعرض لهما صلاح الدين على أيدي الإسماعيلية في سنتي (٥٧٠ و٥٧١هـ) وابتهجوا بنجاته منهما[٣].

وعندما انقسمت الدولة الأيوبية على نفسها عقب وفاة صلاح الدين، وصارت ممالك عديدة يحكم كلا منها أحد أبناء البيت الأيوبي، وطمع كل منهم فيما ناله أخوه أو عمه أو قريبه من بلاد، فكثرت المنازعات بينهم.

ولم يكن النثر بمعزل عن هذا النزاع، فصور الناثرون الذين كانوا يلازمون

---

(١) أبو شامة الروضتين: ج١ : ق١ : ص ٥٩٤ .

(٢) المصدر السابق: ج٢ : ص٢٣، ٢٤ .

(٣) المصدر السابق: ج١ : ق٢ : ص٦١٣-٦١٤، ٦٥٨ -٦٦١ .

ملوك الأيوبيين أخبار تلك المشاحنات فعندما «أفضت السلطنة إلى الملك الأفضل، استوزر ضياء الدين نصر الله بن محمد بن الأثير وفوض إليه أموره كلها.... وكان ضياء الدين المذكور لما اتصل بخدمة الأفضل شاباً غراً، فحسن للملك الأفضل إبعاد أمراء أبيه وأكابر أصحابه، وأن يستجد له أمراء وأصحاباً غيرهم، وقال: هؤلاء خواص السلطان، وينظرون إليك بتلك العين، ويعتقدون أن حقهم واجب وجوب الدين، وهم - بحكم المعرفة لك من الصغر - يتبسطون ويشتطون ولا يقنعون، وأعمال دمشق لا تسعهم، وجميعها لا تقنعهم، والأعمال المصرية لهم أفسح وأوسع، وأما الغرباء، فإنهم يقنعون بأيّ شيء أعطيتهم، ويعترفون بحقك ويعظمونك»[1].

فأخذ الأفضل بهذا الرأي، وأعرض عن أمراء أبيه، ففارقه عدد منهم إلى أخيه الملك العزيز عثمان صاحب مصر وحسنوا له الاستيلاء على دمشق من أخيه الأفضل، «والقيام بالسلطنة مقام أبيه»[2]، فوقع النزاع بين الأفضل والعزيز عثمان، وتدخل الملك العادل أبو بكر بن أيوب لنصرة العزيز عثمان، وانحاز الملك الظاهر صاحب حلب إلى أخيه الأفضل فترة من الزمن، ثم تمكن العادل والعزيز من إقصاء الأفضل عن دمشق وتوليته بعض الولايات الشمالية، فكتب وزير الأفضل ضياء الدين بن الأثير إلى أخيه يصف سقوط دمشق بأيدي منافسي مخدومه متحسراً: «... وينهي إلى علمه أن دمشق فتحت آخر نهار الأربعاء لثلاث بقين من رجب[3]، وكان ذلك بسيف الكيد لا بسيف القتال، ولم تسفك عليها مهجة دم، ولا مهجة نوال، وهذا من أعجب ما يحكيه من رآه، ويرويه من سمعه. وحق على الله أنه لا يرفع شيئاً من الدنيا إلاّ وضعه، وطرأ قبل ذلك وبعده من متجددات الحوادث الطريفة ما تثقل باستقصائها حجم الأوراق الخفيفة...»[4].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٣: ص ١٠-١١.

(٢) المصدر السابق: ج٣: ص ١٤.

(٣) في سنة ٥٩٢ هـ.

(٤) رسائل ابن الأثير: ص ٩٩ (تحقيق القيسي وناجي).

وعندما ملك الأفضل مصر سنة ٥٩٥هـ بعد وفاة أخيه الملك العزيز – الذي انتزع منه دمشق سنة ٥٩٢هـ – كتب إليه ابن الأثير مهنئاً بذلك، ومعبراً عن الفرحة التي تغمر قلبه قائلاً: « . . . وقد كان منتهى أمل الأولياء أن تعود الضالة إلى ربها، وتفكّ الطريدة المغصوبة من يد غصبها، فأتى فضل الله بما لم يبلغه أمل الآمل، وعوض عن القطرة الواحدة بسحاب هاطل . . . »(١).

وقد استمر النزاع بين أبناء صلاح الدين وأقربائه إلى أن تمكن الملك العادل من توحيد الدولة الأيوبية من جديد تحت زعامته سنة ٥٩٦هـ(٢) مبرراً انتزاع السلطنة من الأفضل قائلاً: « . . . فلما حصل من الاختلاف ما حصل، خفت أن يخرج الملك من يدي وأيدي أولاد أخي فمشيت الأمر إلى آخره، فلم أرَ الأمر يصلح إلاّ بقيامي فيه، ونهوضي بأعبائه . . . . . »(٣).

وكتب ابن الأثير عن الأفضل إلى الديوان العزيز ببغداد رسالة عندما قصد دمشق لاستخلاصها من عمه العادل سنة ٥٩٧هـ مفتخراً بحسن سياسته لرعيته، وبحسن أحوال الناس في دمشق ومصر، ورغد عيشهم فيهما في أثناء حكمه لهما، ومعرضاً بسوء أحوال الناس في عهد عمه الملك العادل بسبب ظلمه، وخبث سريرته فكان كعاقر الناقه الذي أصاب ثمود جميعها بفعلته، ويرجو أن تكون ولايته الجديدة ولاية برّ وألطاف وبركة على الرعية، فقال: « . . .فمذ ولي العبد (أيْ الأفضل) أمر دمشق أولاً، وأمر مصر ثانياً، لم يرد يداً عما سألته، ولا نفساً عما أملته، فكان الناس معه في أمن قلوب، ولين جنوب، كأنهم ساكنو الجنة لا يمسهم فيها نصب ولا يمسهم فيها لغوب.

ولما وليهم الخصم اجتثت أحوالهم من أصلها، وأجحف بالبلاد وأهلها فجعل السيئة موضع الحسنة، والخوف مكان الأمنة، فلما اطلع الله على نيته عاقبه

---

(١) رسائل ابن الأثير: ص ٩١ . (تحقيق القيسي وناجي).

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٣: ص ١٠٩–١١٠.

(٣) المصدر السابق: ج٣: ص ١١١.

وعاقب الناس بجرمه، وكان كعاقر الناقة الذي أصيبت ثمود بإثمه، ولقد أضحت سنيّه كسنيّ يوسف[١] بؤسا وجدباً، وليس بمنكر لمن كانت أيامه دُهما أن تكون أعوامه شهبا. ويرجو العبد أن تكون ولايته هذه ولاية بر وألطاف، وأن يرزق الناس بها أعواما سمانا يأكلن ما تقدم من العجاف...»[٢].

وفي سنة ٥٩٩ هـ تجدد الخلاف بين الأفضل وعمه مرة أخرى، فذكر العادل أن الأفضل قد «نقض عهده، وباطن عليه جنده، فانتزع بسبب ذلك ما كان بيده من البلاد الفراتية»[٣]، فكتب ابن الأثير عن الأفضل إلى العادل واصفاً ألمه الممض من هذه العقوبة التي وقعت عليه، ومتنصلاً من أي ذنب يستوجبها، ويحذره من قصاص الله للظالمين، فقال: «.... غير أنه إذا جاءت المساءة من جهة المسرة، والعقوق من جهة المبرة، كان أقضّ للجنب، وأنكى في القلب، وما يقول من وجد العلة في العذب النمير، ورأى الظلمة في فلق الصباح المنير...، فقد فهم من ذلك أن غرضه إظهار عذر، لارتكاب غدر.... وهب أن الناس راقبوا أمره، وأقاموا عذره، فمن يعذره عند الله – تعالى – الذي لا يقبل لظالم عذرا، ولا يجد لديه صرفا ولا نصرا....»[٤]، ثم يذكره بأن المشاحنات تحدث – أحياناً – بين الأقارب وذوي الأرحام ولكنها لا تلبث أن تخبو وتزول، فلا يجوز أن تبقى هذه الخصومات مستعرة بين أبناء البيت الواحد[٥].

ولكن هذه الرسالة لم تثن عمه عما عزم عليه، فكتب إليه رسالة أخرى مؤثرة من إنشاء ابن الأثير رجا فيها عمه أن يعامله بالإنصاف، فيعيد النظر في حكمه

---

(١) النبي يوسف (عليه السلام).

(٢) رسائل ابن الأثير: ص ١٢٥-١٢٦ (تحقيق القيسي وناجي).

(٣) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص ٩٢-٩٣.

(٤) المصدر السابق: ج٢: ص٩٢-٩٤.

(٥) المصدر السابق: ج٢: ص٩٥.

الظالم عليه، ثم بالغ في الضراعة إليه والتشفع به قائلاً: « . . ﴿ **قل رب احكم بالحق، وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون** ﴾[1] . . . ، فليعد المولى نظره فيما تذم، ويراجع فكره فيما توهم، فقد جعل الله من الظن إثما، وأمر بالتثبيت والتبيين عند كل نبأ يوجب حكماً، وليس من المعدلة أن يحكم المولى بظنه، ويتجرم على المملوك بما لم يجنه . . . ، وقد أطنب المملوك في تضرعه، وأطال في أسباب تشفعه، ولا لوم عليه إن قلق لسخط مولانا الذي سد مجاري الرياح، وأخفى عنه مطلع الصباح »[2].

ولكن العادل لم يأبه لذلك، وأنفذ ما عزم عليه فكتب ابن الأثير عن الأفضل كتاباً آخر إلى عمه العادل مذكراً إياه بسابق مودته له، وثقته به، فقد ألقى بيده إليه دون سائر إخوته، « وبذل جهده في الإحسان إليه بنفسه وماله وعساكره، فكان ثمرة ذلك أنه خدعه »[3]، وانتزع منه أملاكه، فقال:

« ندمت على أمر مضى لم يُشِرْ به نصيح، ولم يجمع قواه نظام[4]

رب وثوق يقود إلى الندم، وتودد يدعو إلى التهم، وقد يدل الحلم على صاحبه، ويُطمع في جانبه . . . . . ، هذا وقد علم أني اتخذته أباً أرجو بره، ومولى أطيع أمره، وكنت له كنانة لا يطيش لها سهم، ولا يؤسى منها كلم، ولم أزل ساعياً في تقويم أوده، وإعلاء كلمته ويده، وانتهى بي الحدّ في ذلك أن شاققت بني أبي لمواصلته، وقابحتهم لمجاملته، وشققت في توخي إيثاره عصاهم، وجعلت أدناهم إلي أقصاهم، حتى أصبحت من إخائهم عريّاً، وكنت تميمياً فصرت بكرياً . . . . »[5] ثم يحذره من البغي عليه وقطع رحمه، وخفر ذمته، ويذكره باقتصاص الله – جلّ وعلا – من الظالمين، ثم يصف ألمه لهذا الشقاق، وإشفاقه من

---

(١) الآية رقم (١١٢) من سورة الانبياء.

(٢) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢ : ص٩٥–٩٨ .

(٣) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢ : ص ٩٩ .

(٤) ديوان البحتري: المجلد الرابع: ص ٢٠٦٩ (شرح وتحقيق حسن كامل الصيرفي) .

(٥) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢ : ص ٩٩–١٠٠ .

مخاصمة أهله وذوي رحمه، ولولا ذلك لأشعلها ضد عمه فتنة هوجاء لا تبقي ولا تذر، فقال: « .. وأنا أعظك أن تكون ممن تولى فقطع رحمه، وخفر ذمه، فإن كل دنيا ستنصرم، وكل من حكم عليه ظلما سيحتكم، ﴿ **والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون** ﴾[١] وقد بلغني أنه يتوعدني بنكره، ويوقد على أحناء صدره[٢] وأنه تألّى على الله ليأخذن على يدي وليلبسن يومي بغدي، ويوشك أنه أخذ من الله موثقاً بالخلود، وتابعته الأقدار على اقتسار[٣] الجدود، ومع اليوم غد، وما من يد إلا ولله فوقها يد، وكم بغى في هذه الارض من باغ ففوجئ بالتدميغ[٤] والتدمير، وحالت الأيام بينه وبين ما يقدره من المقادير ﴿ **وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة، ثم أخذتها وإليّ المصير** ﴾[٥] ويعز عليّ أن أعضد[٦]، شجرة أنا من أصلها، أو أقفر داراً أنا من أهلها، فأكون في ذلك كمن جنت كفه على بنانها، وعينه على إنسانها...، ولولا ذلك لأثرتها فتنة تخشن مراكبها، وتحمّر غواربها[٧] وتقبح عواقبها، ويكون دخاناً يغشى الناس فيه عذاب أليم، لا ينجو منه بر ولا أثيم، ولا بريء ولا سقيم....»[٨].

ومهما يكن من أمر فإن الملك العادل لم يأبه لهذه الرسائل، وأعاد- بعد ذلك - توحيد الدولة الأيوبية تحت زعامته[٩]. وكان من أقوى رجال عصره، فعادت

---

(١) الآية رقم (٣٩) من سورة الشورى.

(٢) أحناء جمع حنو: وهو كل شيء فيه اعوجاج كالضلع، والعظم الذي تحت الحاجب من الانسان (ابن منظور: لسان العرب: مادة حنا).

(٣) الاقتسار: الغلبة والقهر (ابن منظور: لسان العرب: مادة قسر).

(٤) دمغ فلاناً دمغاً: شجه حتى بلغت الشجة دماغه، أو أخرج دماغه (ابن منظور: لسان العرب: مادة دمغ).

(٥) الآية رقم (٤٨) من سورة الحج.

(٦) عضد الشجرة: قطعها بالمعضد (ابن منظور: لسان العرب: مادة عضد).

(٧) غوارب الماء: أعالي موجه (ابن منظور: لسان العرب: مادة غرب).

(٨) ديوان رسائل ابن الأثير: ج٢: ص١٠١-١٠٢.

(٩) ابن الأثير: الكامل: ج١٠: ص ٢٦٥-٢٦٦.

هذه الدولة إلى سابق عهدها من القوة والتوحد. وعندما توفي الملك العادل في سنة ٦١٥هـ استقر كل من أبنائه في المملكة التي كان يحكمها إبان عهد أبيه، وبقي هؤلاء الإخوة متفقين إلى حين، ثم دبّ بينهم الخلاف، فانقسموا على أنفسهم، وطمع كل منهم في ملك الآخر. وفي سنة ٦٢٦هـ حاصرت جيوش الملك الكامل وإخوته الملك الناصر داود في دمشق أشد حصار[١] وفي هذه السنة – ايضاً – عقد الملك الكامل صلحا مع الإمبراطور فردريك الثاني سلمه بموجبه مدينة القدس، فأثار ذلك حفيظة المسلمين كما يقول ابن الأثير: «فاستعظم المسلمون ذلك وأكبروه ووجدوا له من الوهن والتألم ما لا يمكن وصفه»[٢].

ووصف المقريزي مدى تأثر المسلمين إثر سماعهم نبأ تسليم الكامل بيت المقدس للأعداء فقال: « فاشتد البكاء، وعظم الصراخ والعويل، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل، وأذّنوا على بابه في غير وقت الآذان، وعظم على أهل الإسلام هذا البلاء واشتد الإنكار على الملك الكامل، وكثرت الشناعات عليه»[٣].

وبعد وفاة الملك الكامل سنة ٦٣٥هـ دب النزاع بين ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وبين الملك الصالح إسماعيل ملك دمشق، فاستعان الصالح أيوب بالخوارزمية، وتحالف الصالح إسماعيل مع الفرنج، وقد أدى هذا النزاع المستمر بين أبناء البيت الأيوبي إلى زوال الدولة الأيوبية، فصدق فيهم قول القاضي الفاضل: «أمّا هذا البيت فإن الآباء منه اتفقوا فملكوا ، والأبناء اختلفوا فهلكوا، وإذا غرب نجم، فما الحيلة في تشريقه؟! وإذا بدا خرق ثوب، فما يليه إلا تمزيقه»[٤].

---

(١) ابن الأثير: الكامل: ج١٠: ص ٤٨٢.

(٢) المصدر السابق: ص٤٨١.

(٣) المقريزي: السلوك: ج١، ق١: ص ٢٣١.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان: ج٣: ص ٤٢٠.

obeikandl.com

ب- نثر الجهاد

أثارت الحروب التي أطلق عليها الفرنج اسم الحروب الصليبية ردة فعل مباشر لدى حكام بلاد الشام وأهلها، لأنها كانت تهدف إلى القضاء على وجود المسلمين في هذه المنطقة، وإحلال أمشاج من الشعوب الأوروبية مكانهم، ولكن ردود فعل المسلمين ظلت ضعيفة في بداية هذه الحروب حتى ظهر عماد الدين زَنكي الذي قاد الهجوم على معاقل الغزاة، واسترد منهم أول إمارة أسسوها وهي إمارة الرّها سنة ٥٣٩هـ، وقد قام الناثرون بدورهم في الحث على الجهاد، والتحريض على رد العدوان، وكتابة رسائل الاستنجاد على ألسنة السلاطين إلى الخلفاء والملوك والأمراء المسلمين، والدعوة لتحرير القدس من براثن الفرنج، وإنشاء رسائل البشائر والتهاني عند انتصار المسلمين، وتسجيل المعارك الكبرى التي وقعت بين الطرفين، وتوجيه التهديد والوعيد للأعداء، والتهوين من شأن انتصارات الفرنج والإشادة بانتصارات المسلمين، ووصف الجيش الإسلامي، وتعظيم أبطاله من قادة وفرسان ورجالة، ووصف معاركه الحاسمة مع الأعداء، ومعاملة المسلمين الرحيمة لمعظم الأسرى. كما وصفوا الجيش الصليبي، وتعدد فرقه، والأجناس المشتركة فيه، وكثرته وقوته، وشجاعة قادته وفرسانه وجنوده، ومساهمة نساء الفرنج في القتال، وغيرة الفرنج على عقيدتهم، وبراعتهم في الحرب، وسرعة إنجادهم، وكثرة إمداداتهم، وضخامة أسلحتهم الثقيلة وتنوعها، وحصانة قلاعهم، ومنعة حصونهم، وسوء معاملتهم لأسرى المسلمين، وغير ذلك.

وكانت الروح الدينية الجهادية هي الموجه القوي لهذا النثر، لأن هذه الحروب كانت صراعا بين العقيدة الإسلامية والعقيدة النصرانية التي رفع الفرنج الصليب شعارا لها، وقد أدّى النثر في هذا العصر وظيفته الجهادية على خير وجه.

الاستنجاد والحث على الجهاد وتحرير بيت المقدس:

اندفعت جحافل الصليبيين فاجتاحت أجزاء واسعة من بلاد الشام، وثبتت أقدامها فيها، بعد أن أجرى الغزاة فيها مذابح رهيبة، وأنزلوا بالمسلمين ألوان

العذاب، فاتجه المسلمون في بلاد الشام إلى إخوانهم في الدين يستغيثون بهم لمساعدتهم في رد هذا العدوان الغاشم عنهم، وكثرت رسائل سلاطين الشام وملوكهم التي تستنجد بملوك المسلمين الآخرين.

فعندما استولى الصليبيون على القدس سنة (٤٩٢هـ/١٠٩٩م) وفتكوا بأهلها، سار المستغيثون إلى بغداد، وحضروا في ديوان الخلافة، فاستغاثوا وبكوا، وقطّعوا شعورهم، وأبكوا الحاضرين[١].

وفي سنة ٥٦٢هـ أرسل نور الدين محمود إلى أخيه قطب الدين مودود بن زنكي[٢] بالموصل، يطلب منه - كما يقول ابن الأثير - أن يعبر الفرات بعساكره، فتجهز وسار بعساكره واجتمع بنور الدين على حمص، ثم دخلت العساكر الإسلامية بلاد الفرنج، فأغارت ونهبت وأسرت[٣].

وبعد حريق مصر في سنة ٥٦٤هـ أرسل الخليفة الفاطمي العاضد إلى نور الدين محمود «يستغيث به، ويعرفه ضعف المسلمين عن الفرنج، وأرسل في الكتب شعور النساء، وقال له: هذه شعور نسائي من قصري يستغثن بك، لتنقذهن من الفرنج»[٤]. ووصف العماد الكاتب مواصلة الوزير المصري شاور استنجاده بنور الدين قائلاً: «وواصل (أي شاور) بكتبه إلى نور الدين مستصرخا مستنفرا وبما ناب الإسلام من الكفر مخبراً، فقال: إن لم تبادر ذهبت، وسيّر الكتب مسوّدة بمدادها، كاسية لباس حدادها، في طيها ذوائب مجزوزة، وعصائب محزوزة، وأظن أنها شعور أهل القصر، للإشعار بما عراهم من بلية

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٥: ص١٥٠-١٥١، وابن الأثير: الكامل: ج٩: ص١٩-٢٠.

(٢) هو قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي، تولى السلطنة بالموصل بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي، وكان حسن السيرة، وخلف عدة أولاد، وتوفي بالموصل سنة ٥٦٥هـ (أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٤٧٤ - ٤٧٥).

(٣) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج١: ق٢: ص٣٧٤-٣٧٥.

(٤) المصدر السابق: ج١: ق٢: ص٣٩١.

الحصر، وأرسلها تباعاً»[1] فجهز نور الدين جيشا بقيادة أسد الدين شيركوه أجبر الفرنج على الجلاء عن مصر بعد معارك عديدة معهم[2].

وفي سنة ٥٧١هـ طلب صلاح الدين «خروج الأمر بخطاب جميع ملوك الأطراف أن يكونوا للمملوك على المشركين أعوانا، وان يمتثل أمر نبينا (ﷺ) في أن يكونوا بنيانا، فيعضدوه إذا سعى، ويلبّوه إذا دعا...»[3].

وفي سنة ٥٨٣هـ كتب صلاح الدين «إلى الأقطار والبلاد يستدعي من جميع الجهات جموع الجهاد، وأهل للاستدعاء أهل الاستعداد، واستحضر الغزو من الحضر والبدو...»[4].

وعندما اشتد الكرب بالمسلمين، وتوالت عليهم المحن في أثناء حصار الفرنج لعكا أرسل صلاح الدين كتاباً من إنشاء فاضلي إلى الخليفة العباسي وصف فيه توالي الإمدادات للإفرنج وضخامتها، ثم طلب منه النجدة والعون قائلا: «فيا عصبة محمد عليه السلام أخلفه في أمته بما تطمئن به مضاجعه، ووفه الحق فينا فإنا والمسلمون عندك ودائعه....»[5].

وأرسل صلاح الدين إلى الخليفة العباسي ببغداد رسالة استنجاد أخرى من إنشاء العماد الكاتب، وقد وازن الكاتب فيها بين حماسة الفرنج لنجدة المعتدين، ونصرة عقيدتهم، وبين تخاذل المسلمين في نجدة إخوانهم وإعزاز دينهم، فهم يتضجرون من طول الحرب، ويتهربون منها، ولا يلبثون فيها إلاّ طلباً للمال، ويحضرون للحرب وقلوبهم شتى، فقال «.... بخلاف أهل الإسلام فإنّهم يتضجرون ولا يصبرون، بل يتفللون ولا يجتمعون، ويتسللون ولا يرجعون، وإنما

---

(١) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٣٩١-٣٩٢.

(٢) المصدر السابق: ج١: ق٢: ص٤٥٦-٤٦٠.

(٣) المصدر السابق: ج١: ق٢: ص٦٤٩.

(٤) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص٥٨.

(٥) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص١٥٧.

يقيمون ببذل نفقة، وإذا حضروا حضروا بقلوب غير متفقة....»[١].

ولما لم يقدم الخليفة لصلاح الدين المدد المرجو، وازداد حال المسلمين في عكا سنة ٥٨٥هـ سوءاً، أرسل صلاح الدين كتابا إلى ملك المغرب -آنذاك- مستنجداً به ليجتمعا معا على جهاد الفرنج، فيحول ملك المغرب دون وصول النجدات من أوروبا إلى الشام من ناحية، ويمده بأسطول ورجال من ناحية أخرى[٢]، ولكن ملك المغرب لم يستجب لهذه الرسالة، فأرسل له رسالة ثانية من إنشاء الفاضل[٣]، وعندما سقطت عكا أتبعها برسالة استنجاد ثالثة[٤]، وأرسل صلاح الدين - أيضاً - رسالة استنجاد إلى أخيه ملك اليمن من إنشاء الفاضل منها: «.... فالبدار إلى النجدة البدار، والمسارعة إلى الجنة فإنها لا تنال الا بإيقاد نار الحرب على أهل النار، والهمة الهمة فإن البحار لا تُلقى إلاّ بالبحار، والملوك الكبار لا يقف في وجوهها إلاّ الملوك الكبار....»[٥] ولكن هذه الرسائل الموجهة إلى الخليفة العباسي وإلى ملكي المغرب واليمن لم تجد نفعا، ولم يحظ صلاح الدين منهم بأي عون أو مدد.

وعندما نجح الفرنج في الاستيلاء على دمياط سنة ٦١٥هـ، أرسل الملك الكامل الأيوبي رسالة مؤثرة إلى إخوته ملوك الشام مستنجداً بهم، قال فيها: «.... الوحا الوحا، العجل العجل، أدركوا المسلمين قبل أن يملك الفرنج جميع أرض مصر....»[٦] فأقبل ملوك بني أيوب من الشام والجزيرة الفراتية وهزموا الإفرنج وأجلوهم عن مصر[٧].

---

(١) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص١٦١.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٦: ص ٥٢٥-٥٢٩.

(٣) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص١٧٠ -١٧١.

(٤) المصدر السابق: ج٢: ص ١٧١-١٧٣.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٧: ص٢٥.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية: ج١٣: ص ٨٧.

(٧) المقريزي: السلوك: ج١: ق١: ص١٨٨-٢٠٩.

وقد ركزت رسائل الاستنجاد – كما رأينا – على مدح المستنجد بهم[١]، وتصوير ما حلَّ بالمسلمين في الشام ومصر من إذلال وترويع وتقتيل واستباحة للمقدسات والأعراض والأوطان على أيدي الفرنج، لبعث النخوة والحمية في نفوسهم ولحملهم على الإسهام في شرف الجهاد[٢]. كما صوّر الكتّاب في تلك الرسائل تضافر قوى الفرنج وتدفق الإمدادات الأوروبية عليهم، عدة وعتاداً وجيوشاً، وألحوا على إخوانهم في الدين أن يمدوهم بمثل هذه النجدات ليتمكنوا من درء خطر الفرنج الداهم، وحذروهم من العواقب الوخيمة التي ستنجم عن التقاعس في إنجادهم[٣].

وهبَّ الأدباء يحرضون المسلمين قادةً وشعوباً على الجهاد، ويستنهضون هممهم، لصدّ حملات هؤلاء الأعداء، ثم لغزوهم، واسترداد ما احتلوه من ديار وأوطان، ولاستئصال شأفتهم فبعد انهزام نور الدين محمود في موقعة البقيعة سنة ٥٥٩هـ بدأ في الاستعداد لمواجهة الفرنج ثانية للأخذ بثأره، فأرسل إلى أمراء الشام والموصل مستنصراً بهم، وكاتب العبّاد والزهاد، وطلب منهم أن يحثوا المسلمين على جهاد الغزاة، فقعد كل واحد من هؤلاء، ومعه أصحابه وأتباعه وهم يقرؤون كتب نور الدين ويبكون، . . . فلم يجرؤ الأمراء على التقاعس عن إنجاده، واضطروا إلى المسير لمناصرته[٤].

وكتب ابن الأثير تقليداً يعارض به تقليداً لأبي الحسن الصابىء حرّض فيه على الجهاد قائلاً: « . . ويتلوه جهاد العدو الكافر في مواقف القتال، وأمير المؤمنين يعرّفك من ثوابه ما تجعل السيف في ملازمته أخاً، وتسخو له بنفسك إن كان أحد بنفسه سخا، ومن صفاته أنه العمل المحبوّ بفضل الكرامة الذي ينمى أجره بعد صاحبه إلى يوم القيامة، وبه تُمتحن طاعة الخالق على المخلوق، وكل

---

(١) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص١٧٣.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٧: ص٢٥–٢٧.

(٣) المصدر السابق: ج٧: ص١٣٧–١٣٩.

(٤) ابن الأثير: الكامل: ج٩: ص٤٦٨.

الأعمال عاطلة لا خلوق لها، وهو المختص دونها برتبة الخلوق، ولولا فضله لما كان محسوباً لشطر الايمان، ولما جعل الله الجنة له ثمناً، وليست لغيره من الأثمان، وقد علمت أن العدو وهو جارك الأدنى، والذي يبلغك وتبلغه عينا وأذنا، ولا تكون للإسلام نعم الجار حتى تكون له بئس الجار، ولا عذر لك في ترك جهاده بنفسك ومالك اذا قامت لغيرك الأعذار...»[1].

وعندما سقطت عكا بأيدي الفرنج سنة ٥٨٧هـ وغدروا بأهلها وحاميتها كتب العماد الكاتب محرضا على الجهاد قائلاً: «.. والآن فقد ثارت الحميات، وهبت النخوات، ووجب على كل مسلم أن ينهض لنصرة الإسلام، ويتدارك ما حدث من الكسر والوهن بالجبر والإحكام...، فأين ذوو الأنفة والحمّية، والهمم العليّة، والنفوس الأبّية؟! ...»[2].

وعندما سار الفرنج لاحتلال بيروت سنة ٥٩٣هـ أرسل الفاضل من مصر إلى الملك العادل الذي كان نائبا للملك العزيز عثمان في حكم الشام يحثه على الصبر والثبات في مواجهة الأعداء، قائلاً: «وقد تجدد من وصول العدو اللعين وحركته إلى جانب بيروت وخطر البلاد ما أذهل كل مرضعة، وأوقع في ضائقة تنفق الأفكار فيها من سعة، وللإسلام اليوم قدم إن زلت زلّ، وهمة إن ملت فإن النصر منه مل، وتلك القدم القدم العادلية، وتلك الهمة الهمة المسابقة السيفية، فالله الله ثبتوا ذلك الفؤاد، ودمّثوا ذلك المهاد، واسهروا في الله فليست بليلة رقاد،.... انظروا إلى أنكم الإسلام كله قد برز إلى الشرك كله، وأنكم ظل الله، فإن صححتم تلك النسبة، فإن الله لا ناسخ لظله، واصبروا إن الله مع الصابرين، ولا تهونوا وإن ذهب الناصر[3] فإن الله خير الناصرين...»[4].

---

(١) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق١ :ص٣٢٨-٣٢٩ .

(٢) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص١٩٠ .

(٣) الناصر يعني صلاح الدين.

(٤) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص٢٣٢ .

وبعد احتلال الفرنج لمدينة دمياط سنة ٦٤٨هـ ومسيرهم نحو المنصورة، أرسل أولو الأمر من المعسكر كتابا بليغاً إلى القاهرة، فقرىء على المصلين في يوم الجمعة من فوق منبر جامع القاهرة، وكان أوله: ﴿ **انفروا خفافا وثقالا، وجاهدوا في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾[١]. وفيه مواعظ بليغة في الحث على الجهاد. «فحصل عند قراءته من البكاء والنحيب وارتفاع الاصوات بالضجيج ما لا يوصف، وارتجّت القاهرة ومصر لكثرة انزعاج الناس وحركتهم للمسير، فخرج من البلاد والنواحي لجهاد الفرنج عالم عظيم ...»[٢].

وكان تحرير الأراضي المحتلة من أيدي الفرنج واسترجاع بيت المقدس منهم غاية أماني المسلمين، وقمة أهدافهم، لما للقدس من مكانة خاصة في نفوس المسلمين جميعا، فقد تمنى نور الدين محمود في رسالة كتبها إلى الخليفة العباسي، أن يوفقه الله لفتح بيت المقدس، وتطهير المسجد الأقصى من أرجاس الفرنج، فقال: « .... ونسأل الله التوفيق لاستدناء قواصي المنى، وإقصاء عبدة الصليب الأنجاس من المسجد الأقصى، وأن يجعل فتح البيت المقدس مفتتح مراده ومقتدح زناده، ومقترحه في جهاده، وأن يملكه الساحل بجميع بلاده....»[٣].

وأبان الفاضل في رسالة كتبها عن صلاح الدين إلى الديوان العزيز أن حافز صلاح الدين لتوحيد بلاد الشام هو مصلحة الإسلام والمسلمين، وتهيئة الأسباب لفتح بيت المقدس، واستئصال شأفة الكفار من بلاد المسلمين، وإلاّ تعمقت جذورهم في بلاد المسلمين، وزاد إيذاؤهم لهم، واستحق المسلمون غضب الله عليهم لقعودهم عن الجهاد، فقال: « .... ونظرنا للإسلام ولنا، ولبلاد الإسلام في العاقبة، وعرفنا أن البيت المقدس إن لم تتيسر الأسباب لفتحه، وأمر الكفر إن لم يجرد العزم في قلعه، وإلاّ ثبتت عروقه، واتسعت على أهل الدين خروقه،

---

(١) سورة التوبة: الآية رقم (٤١).

(٢) المقريزي: السلوك: ج١: ق٢: ص ٣٤٦-٣٤٧.

(٣) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٥٤٨.

وكانت الحجة لله قائمة، وهمم القادرين بالقعود آثمه . . . »[١].

ومن ذلك – أيضاً – قول ضياء الدين بن الأثير في تقليد كتبه معارضاً لتقليد كتبه أبو الحسن الصابىء[٢]: « . . وأمير المؤمنين لا يرضى منك أن تلقاه [أي العدو] مكافحاً، أو تطرق أرضه مماسياً أو مصابحاً، بل يريد أن تقصد البلاد التي في يده قصد المستنقذ لا قصد المغير، وأن تحكم فيها بحكم الله الذي قضاه على لسان سعد في بني قريظة والنضير، وعلى الخصوص البيت المقدس، فإنه تلاد الإسلام القديم، وأخو البيت الحرام في شرف التعظيم، والذي توجهت إليه الوجوه من قبل بالسجود والتسليم، وقد أصبح وهو يشكو طول المدة في أسر رقبته، وأصبحت كلمة التوحيد وهي تشكو طول الوحشة في غربتها عنه وغربته، فانهض إليه نهضة توغل في قرحه، وتبدل صعب قياده بسمحه، وإن كان له عام حديبية، فأتبعه بعام فتحه . . . »[٣].

وبعد معركة حطين الحاسمة واسترداد صلاح الدين لكثير من المدن والقلاع والحصون من الفرنج، أرسل العماد الكاتب إلى الخليفة العباسي على لسان صلاح الدين رسالة عدّد فيها ما افتتحه منها، ثم أكد عزمه على تحرير بيت المقدس فقال: « وما يتأخر النهوض إلى القدس، فهذا أوان فتحه، ولقد دام عليه ليل الضلال، وقد آن أن يسفر فيه الهدى عن صبحه . . . »[٤].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص ٢٨.

(٢) هو هلال بن المحسن بن إبراهيم بن هلال الصابىء الحراني، ولد سنة ٣٥٩هـ، وقد تولى ديوان الإنشاء كما تولى الكتابة لفخر الملك محمد بن خلف، وكان صابئيا ثم أسلم بعد أن تجاوز الأربعين، وهو من أشهر الكتاب في عصره، توفي سنة ٤٤٨هـ وله مؤلفات عديدة منها: « تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء »، و« غرة البلاغة في الرسائل »، و« رسوم دار الخلافة »، و« كتاب بغداد »، « وكتاب الأمائل والأعيان ومنتدى العواطف والإحسان » (معجم الادباء: ج١٩: ص٢٩٤ – ٢٩٧).

(٣) ضياء الدين بن الأثير: المثل السائر: ق١: ص٣٢٩.

(٤) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص٨٩.

واستمر الأدباء في الحض على تحرير بيت المقدس حتى تحققت تلك الأمنية العزيزة على يدي صلاح الدين.

البشائر والتهاني، وتسجيل المعارك الكبرى:

كان الناثرون يعيشون في خضم الحوادث الجسيمة في ذلك العصر، ويرقبون المعارك الكبرى فيه، بل كان بعضهم يشارك فيها - أحياناً - وعندما كان ينجلي غبار تلك المعارك عن انتصار المسلمين كانت ترسل رسائل البشائر والتهاني للخلفاء والملوك والأمراء والولاة لتصف عظمة تلك الانتصارات، أو جلال تلك الفتوحات، كما كانت ترسل التهاني عند برء أحد أكابر ذلك العصر من مرضه أو نجاته من شدة وقع فيها.

فعندما ألغى صلاح الدين الخلافة الفاطمية، وأعلن عودة مصر للخلافة العباسية، كتب نور الدين بذلك كتاب بشارة إلى الخليفة في بغداد، وطلب من حامله أن يقرأ على الناس في كل مدينة يمر بها، وهو في طريقه إليها، ومنه: «... أصدرنا هذه المكاتبة إلى جميع البلاد الاسلامية بما فتح الله على أيدينا أرتاجه، وأوضح لنا منهاجه، وهو ما اعتمدناه من إقامة الدولة الهادية العباسية بجميع المدن والأقطار والأمصار المصرية، ومصر والقاهرة، وسائر الأطراف الدانية والقاصية، والبادية والحاضرة....، وهذا شرف لزماننا هذا وأهله، نفتخر به على الأزمنة التي مضت قبله...»[1].

وعندما نجا صلاح الدين من محاولة اغتياله من قبل الحشيشية وهو على عـــزاز[2] سنة ٥٧١هـ، كتب القاضي الفاضل إلى الملك العادل [أخي صلاح الدين] بمصر مهنئا له بنجاته، فقال: «... السلامة شاملة، والراحة بحمد الله للجسم الشريف حاصلة، ولم ينله من الحشيشي الملعون إلاّ خدش قطرت منه قطرات دم خفيفة انقطعت لوقتها، واندملت لساعتها، والركوب على رسمه

---

(١) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٥٠٢.

(٢) بليدة فيها قلعة شمالي حلب (ياقوت: معجم البلدان: ج٤: ص١١٨).

والحصار لأعزاز على حكمه، وليس في الأمر بحمد الله ما يضيق صدراً ولا ما يشغل سراً . . . »[1].

وعندما بدأ صلاح الدين حركة الانقضاض على معاقل الفرنج وفتحها بدأت رسائل البشائر بهذه الفتوح تتوالى من صلاح الدين إلى الخليفة في بغداد، وإلى الملوك والأمراء في أرجاء البلاد، ومن ذلك ما كتبه العماد الكاتب – على لسان صلاح الدين – مبشراً الخليفة ببغداد بانتصاره في معركة حطين فقال: « . . . . ﴿ **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون** ﴾[2]، الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد . . . . والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم والنصر الكريم ما يشرح صدور المؤمنين، ويمنح الحبورلكافة المسلمين، ويورد البشرى بما أنعم الله به . . . ، فيوم الخميس فتحت طبرية ويوم الجمعة والسبت نوزل الفرنج فكسروا الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة، وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه أخذ القرى وهي ظالمة . . . ، وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصلبوت مأسور، وقلب ملك الكفر الأسير بجيشه المكسور مكسور، . . وطبرية قد رفعت أعلام الإسلام عليها، ونكصت من عكا ملة الكفر على عقبيها، وعمّرت إلى أن شهدت يوم الإسلام، وهو خير يوميها . . . »[3].

وعندما فتح صلاح الدين بيت المقدس، حملت رسائل البشرى أنباء هذا النصر العظيم إلى المسلمين في أرجاء الارض، وكتب العماد الكاتب وحده في يوم وصوله إلى بيت المقدس « سبعين كتاب بشارة، وكل كتاب بمعنى بديع وعبارة » . ثم أردفها – كما يقول – في تلك الليلة « بكتب نابت في سمائها عن شهب استوعبت في كل كتاب الشروح، واستفتحت بتعظيم وعظمت

---

(١) أبو شامة : الروضتين : ج١ :ق٢ :ص٦٥٩ .

(٢) الآية رقم (١٠٥) من سورة الأنبياء .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب : ج٢ : ص٢٠٣-٢٠٤ .

الفتوح»[1]. ومنها الكتاب الذي أرسل إلى الديوان العزيز ببغداد، ومنه قوله: ﴿**وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا**﴾[2]، الحمد لله الذي أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة، ومكّن دينه المرتضى وبدل الأمن من المخافة، وذخر هذا الفتح الأسنى والنصر الأهنى للعصر الإماميّ النبوي الناصري على يد الخادم أخلص أوليائه، والمختص من اعتزازه باعتزائه إليه وانتمائه، وهذا الفتح العظيم، والنجح الكريم، قد انقرضت الملوك الماضية والقرون الخالية عن حسرة تمنيه، وحيرة ترجيه، ووحشة اليأس من تسنّيه، وتقاصرت عنه طوال الهمم، وتخاذلت عن الانتصار له أملاك الأمم، فالحمد لله الذي أعاد القدس إلى القدس، وأعاذه من الرجس، وحقق من فتحه ما كان في النفس، وبدل وحشة الكفر فيه من الإسلام بالأُنس، وجعل عزّ يومه ماحياً ذل أمس...»[3].

ووصف العماد الكاتب مجلس صلاح الدين للهناء، وقد وصلت إليه رسل سلاطين المسلمين وملوكهم للتهنئة بهذا النصر العظيم[4]. فقال: «وجلس السلطان للهناء، للقاء الأكابر والأمراء، والمتصوفة والعلماء، وهو جالس على هيئة التواضع وهيبة الوقار، بين الفقهاء وأهل العلم جلسائه الأبرار، ووجهه بنور البشر سافر، وأمله بعز النجح ظافر، وبابه مفتوح، ورفده ممنوح، وحجابه مرفوع، وخطابه مسموع.....، قد حلت له حالة الظفر، وكأن دسته به هالة القمر، والقراء جلوس يقرأون ويرشدون، والشعراء وقوف ينشدون وينشدون، والأعلام تبرز لتنشر، والأقلام تزبر لتبشر، والعيون من فرط المسرة تدمع، والقلوب للفرح

---

(١) الفتح البنداري: سنا البرق الشامي: ص٣١٣.

(٢) الآية رقم (٥٥) من سورة النور.

(٣) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص٩٦-٩٧.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٥٤٨.

بالنصرة تخشع، والألسنة بالابتهال إلى الله تضرع.....»[1].

وعندما انتصر المسلمون على الفرنج في معركة المنصورة سنة ٦٤٨هـ، أرسل السلطان توران شاه إلى نائبه في الشام جمال الدين يغمور مبشراً بذلك، فقال: ﴿ **الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن** ﴾[2]. ﴿ **وما النصر إلاّ من عند الله** ﴾[3]، ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء، وهو العزيز الرحيم** ﴾[4]، ﴿ **وأما بنعمة ربك فحدث** ﴾[5]، ﴿ **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها** ﴾[6]. نبشر المجلس السامي الجمالي، بل نبشر الإسلام كافة، بما منّ الله به على المسلمين، من الظفر بعدو الدين؛ فإنه كان قد استفحل أمره، ويئس العباد من البلاد، والأهل والأولاد، فنودوا ﴿ **ولا تيأسوا من روح الله؛ إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون** ﴾[7]. «ولما كان يوم الأربعاء مستهل السنة المباركة تمم الله على الإسلام بركتها...»[8].

وقد واكب النثر حركة الجهاد الاسلامي منذ بداية الحروب الصليبية، فرصد الناثرون معظم المعارك الكبرى التي انتصر فيها المسلمون على الفرنج، فأشادوا بأبطالها، وصوروا ما حل بالفرنج من هزائم، واستبشروا بهذه الفتوح، واعتبروها مقدمة لاسترداد بقية الأراضي المحتلة، ومن أكبر المعارك التي حظيت باهتمام الأدباء معارك الرّها، وحطين، وبيت المقدس، ودمياط والمنصورة.

ففي سنة ٥٣٩هـ فتح عماد الدين مدينة الرّها من الفرنج، فابتهج المسلمون بهذا الفتح المبين، وأشاد الأدباء به، وشبهوه بمعركة بدر، وقدموه على فتح

---

(١) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص١٣٠.

(٢) الآية رقم (٣٤) السورة: فاطر.

(٣) الآية رقم (١٢٦): السورة: آل عمران.

(٤) الآيتان (٤، ٥): السورة: الروم.

(٥) الآية (١١): السورة الضحى.

(٦) الآية رقم (٣٤) السورة: إبراهيم.

(٧) الآية رقم (٨٧) السورة: يوسف.

(٨) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة: ج٦: ص٣٦٧.

عمورية في زمن الخليفة المعتصم بالله العباسي (٢١٨-٢٢٧ هـ)[١]، وفي ذلك يقول ابن الأثير: « وكان هذا فتح الفتوح حقا، وأشبهها ببدر صدقا، من شهده فقد تمسك من الجهاد بأوثق سبب، ولو عاصره الطائي[٢] لعلم أنه أولى بقوله: السيف أصدق أنباء من الكتب.... »[٣].

وفي عهد نورالدين محمود توالت انتصاراته على الفرنج وكان أولها استعادة الرّها سنة (٥٤١ هـ/ ١١٤٦م) بعد أن استردها الفرنج من المسلمين إثر مقتل والده، فتابع الناثرون تسجيل انتصاراته والإشادة بها[٤].

وفي سنة ٥٨٣هـ وقعت معركة حطين الخالدة التي حقق فيها صلاح الدين أعظم نصر على الفرنج منذ أن وطئت أقدامهم بلاد الشام، فقد قدّر بعض المؤرخين عددهم فيها بخمسة وأربعين ألفا، وقدره بعضهم الآخر بثلاثة وستين ألفاً بين فارس وراجل، ولم ينج منهم - حسب بعض الروايات - سوى ألف رجل، ووقع الباقون بين قتيل وجريح وأسير.

وقد خلّد الأدباء هذه المعركة وأشادوا ببطلها وبحسن بلاء الجيش فيها، ومن ذلك قول العماد الكاتب: « ... ومذ استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفي للمسلمين كيوم حطين غليل، فالله - عزّ وجل - سلّط السلطان، وأقدره على ما أعجز عنه الملوك، وهداه من التوفيق لامتثال أمره، ومن إقامة فرضه للنهج المسلوك، ونظم له في حتوف أعدائه، والفتوح لأوليائه السلوك، وخصه بهذا اليوم الأغر، والنصر الأبر، واليمن الأسرّ، والنجح الأدر، ولو لم يكن له إلاّ فضيلة

---

(١) ابن الأثير: الكامل: ج٦ : ص٤٠-٤٥، ٧٠-٧٢.

(٢) هو الشاعر المشهور أبو تمام الطائي (١٨٨-٢٣٢هـ) الذي مدح الخليفة المعتصم بالله حين فتح عمورية من الروم سنة ٢٢٣هـ ببائيته المشهورة التي مطلعها:

السيف أصدق أنباء من الكتب في حدّه الحدّ بين الجد واللعب

(ديوان أبي تمام بشرح التبريزي: ج١ : ص٤٠-٧٣، ووفيات الأعيان: ج٢ : ص١١).

(٣) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص٦٧.

(٤) أبو شامة: الروضتين: ج١ : ق١ : ص١٢٧-١٢٨، ١٣١، ١٤٥-١٤٧ وغيرها.

هذا اليوم، لكان متفرداً على الملوك السالفة فكيف ملوك العصر في السمو والسوم. . . » [١].

ولم يترك صلاح الدين للفرنج فرصة الإفاقة من هزيمتهم، وإعادة تنظيم جيوشهم ، بل مضى يلاحق فلولهم المنهزمة ، ففتح معظم حصونهم ولا سيما الساحلية منها[٢]، ليمنع وصول النجدات الأوروبية إليهم، ثم استدعى عساكره المتفرقة وسار الى بيت المقدس ففتحه، فابتهج المسلمون بذلك ابتهاجاً لا مثيل له، وظفر هذا الفتح بنصيب وافر من الأدب إذ أعدّ كبار الخطباء خطباً لإلقائها من على منبر المسجد الأقصى، وتمنى كل منهم أن يحظى بذلك وسجّل الكتّاب هذا النصر في مؤلفاتهم ورسائلهم[٣]، ومن ذلك قول ابن شداد يصف ذلك: « . . ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لا يندفع عنهم، وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل، وكان قد ألقي في قلوبهم الرعب مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر، وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ، علموا أنهم إلى ما صاروا إليه صائرون، وبالسيف الذي قتل به إخوانهم مقتولون، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين.

وكان تسلمه القدس (أي صلاح الدين) – قدّس الله روحه – في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب كيف يسر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيهم (ﷺ) إليه، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله – تعالى – وكان فتوحاً عظيماً شهده من أهل العلم خلق عظيم، ومن أرباب الخرق والطرق، وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسر الله على يده من فتوح الساحل،

---

(١) أبو شامة : الروضتين : ج٢ : ص٧٨، ٨٢ : والسوم عرض السلعة على البيع، والحكم، والسوم على القوم : الإغارة عليهم والعيث فيهم (لسان العرب : مادة سوم) .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية : ص ٧٩–٨١ .

(٣) أبو شامة : الروضتين : ج٢ : ص ٩٢–١١٢ .

وشاع قصده القدسيّ قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروف من الحضور، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير، وخطب فيه، وصليت فيه الجمعة يوم فتح، وحط الصليب الذي كان على قبة الصخرة، وكان شكلاً عظيماً، ونصر الله الإسلام نصر عزيز مقتدر . . . »[١].

وكتب العماد الكاتب في إحدى رسائله بهذه المناسبة قائلاً: «فتحُ بيت المقدس الذي عَجَز الملوكُ عن تَمَنّيه، فكيف تَسنّيه[٢]؟! وماتت الاطماعُ دونَه، فلم تَطْمَعْ فيه، فمنَّ الله علينا بتذليلِ صَعْبِه، وإعذابِ شُربِه، وتسهيلِ وعره، وتحصيلِ فخرِه، وقضى الملوك في ليله، وجئنا نحن عليه بإسفار فجره، وقد كانت الصخرةُ مستصرخة ومطايا الكفر بكلاكلها عليها مَنوخَة، فأُجيبت دعوتُها وأُصيبت خُطوتُها، وتناثرت على صخرتها يواقيتُ الشفاه، وقوبلت قِبلتُها بقُبَل الأفواه، ودنا المسجد الاقصى للقاصي والداني، وزال رين العاني[٣]، وقرت عين الراني، هذا فتح عظيم قدره، جسيم فخره، فاضل عصره، كامل نصره، غير منسيّ إلى يوم الحشر ذكره»[٤].

ولا غرو في ابتهاج المسلمين باسترداد بيت المقدس، لأنه يضم المسجد الأقصى وهو أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، وهو مسرى رسول الله (ﷺ)، ولأن هدف الحروب الصليبية الأول كان احتلال بيت المقدس، فاسترجاعه كان يعني فشل الحروب الصليبية، ولأن احتلال الفرنج له لمدة طويلة خلق في نفوس المسلمين شعوراً بصعوبة استرداده، فكانت استعادته تحقيقاً لأمنية عزيزة على قلب كل مسلم.

وأما معركة المنصورة في سنة ٦٤٨هـ فكانت خاتمة الحملات الصليبية اذ توقفت

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص٨١-٨٢.

(٢) تسنيه: فتحه (اللسان: مادة :سنا).

(٣) في الأصل: العائن: ولعل الصواب ما ذكرت.

(٤) أبو شامة الروضتين: ج٢: ص ٩٧.

بعدها إمدادات أوروبا إلى الإمارات الصليبية في الشام، وأصبح زوالها محتماً، وكان انتصار المسلمين فيها على الفرنج عظيماً، إلاّ أنها لم تلق ما تستحقه من عناية الأدباء بسبب اضطراب الأمور في مصر – آنذاك –، إذ مات الصالح نجم الدين أيوب في أثنائها، وقتل المماليك ولده تورانشاه بعد انتهائها، واختاروا شجرة الدر ملكة لمصر، ثم زالت الدولة الأيوبية واستولى المماليك على مصر.

التهديد والوعيد، والتقليل من شأن الهزائم:

تبادل المسلمون والفرنج رسائل التهديد والوعيد، واتخذ كلّ منهما من هذه الرسائل وسيلة لتحطيم الروح المعنوية لدى خصمه، ومن الطبيعي أن يأتي التهديد في النصف الأول من القرن السادس الهجري من الفرنج، ثم أخذ الفريقان – بعد ذلك – يتبادلان الوعيد والتهديد، ومن ذلك الكتاب الذي أرسله فردريك الثاني سنة ٦٢٥هـ بعد وصوله إلى عكا إلى الملك الكامل الأيوبي، وطالبه فيه بتسليم ما استولى عليه صلاح الدين الأيوبي من بلاد الساحل فضلاً عن القدس، ومما جاء في هذا الكتاب قوله: « . . . كان الجيد، والمصلحة للمسلمين أن يبذلوا كل شيء، ولا أجيء إليهم، والآن فقد كنتم بذلتم لنائبي – في زمن حصار دمياط – الساحل كله، وإطلاق الحقوق بالاسكندرية، وما فعلنا، وقد فعل الله لكم ما فعل من ظفركم وإعادتها إليكم، ومن نائبي؟!! إن هو إلاّ أقل غلماني، فلا أقلّ من إعطائي ما كنتم بذلتموه له . . . »[1].

وقد رد عليه الملك الكامل رداً لطيفاً، وعقد معه هدنة مدتها عشر سنوات تنازل له بموجبها عن بيت المقدس[2].

وفي سنة ٦٤٧هـ نزل لويس التاسع على دمياط، وأرسل رسالة تهديد إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب ذكّره فيها ببطش الفرنج بالمسلمين في بلاد الأندلس،

---

(١) المقريزي: السلوك: ج١: ق١: ص٢٢٨-٢٢٩.

(٢) المصدر السابق: ص٢٣٠-٢٣١.

وحذره من مواجهته، ونصحه بالاستسلام إليه، وإلاّ فإنه سيهاجمه في عقر ملكه، بجحافله القوية الضخمة، ومما جاء في رسالته: « .... أما بعد: فإنه لم يخف عليك أني أمين الأمة العيسوية، كما أني أقول، إنك أمين الأمة المحمدية، وإنه غير خافٍ عليك أنّ عندنا أهل جزائر الأندلس، يحملون إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل منهم الرجال، ونرمل النساء ونستأسر البنات والصبيان، ونخلي منهم الديار، وقد أبديت لك ما فيه الكفاية، وبذلت لك النصح إلى النهاية، فلو حلفت لي بكل الأيمان، وأدخلت عليَّ القسوس والرهبان، وحملت قدامي الشمع طاعة للصلبان، ما ردّني ذلك عن الوصول إليك، وقتالك في أعزّ البقاع عليك. فإن كانت البلاد لي فيا هدية حصلت في يديَّ، وإن كانت البلاد لك والغلبة عليَّ، فيدك العليا ممتدة اليَّ، وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي، تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضاء»[1].

فردّ عليه الملك الصالح برسالة كتبها البهاء زهير سنة (-٦٥٦هـ) ذكره فيها بقوة المسلمين وشجاعتهم وانتصاراتهم على الفرنج، وتوعده بالهزيمة التي تنتظره، فقال: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلواته على سيدنا محمد رسول الله وآله وصحبه أجمعين، أمّا بعد: فإنه وصل كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك، فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا قرن إلاّ جددناه، ولا بغى علينا باغٍ إلاّ دمرناه، فلو رأت عيناك أيها المغرور حدَّ سيوفنا، وعظم حروبنا، وفتحنا منكم الحصون والسواحل، وإخرابنا منكم ديار الأواخر والاوائل، لكان لك ان تعض على أناملك بالندم، ولا بد أن تزلّ بك القدم، في يوم أوله لنا وآخره عليك. فهنالك تسيء بك الظنون، ﴿**وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون**﴾[2] فإذا قرأت كتابي هذا فكن فيه على أول سورة النحل: ﴿**أتى أمر**

---

(١) المقريزي: السلوك: ج١: ق٢: ص٣٣٤.

(٢) سورة الشعراء: الآية (٢٢٧).

الله فلا تستعجلوه ﴾[1]. وكن على آخر سورة (ص): ﴿ **ولتعلمن نبأه بعد حين** ﴾[2]. ونعود إلى قول الله - تبارك وتعالى - وهو أصدق القائلين: ﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين** ﴾[3]. وإلى قول الحكماء: «إن الباغي له مصرع، وبغيك يصرعك، والى البلاء يقلبك، والسلام»[4].

وقد قللَّ الناثرون من شأن الهزائم التي لحقت بالمسلمين إذ كانوا يعتبرونها - أحياناً - قضاء وقدراً فيدعون إلى التسليم بقضاء الله وقدره، وإلى ثبات عزائمهم وثقتهم بالنصر، فقد كتب الفاضل إلى صلاح الدين بعد هزيمة المسلمين في الرملة سنة ٥٧٣هـ مواسياً له «... وأمّا نوبة العدو في الرملة، فقد كانت عثرة علينا ظاهرها، وعلى العدو باطنها، ولزمنا ما بقي من اسمها، ولزمهم ما بقي من عزمها، لا دليل أدل على القوة من المسير بعد شهرين من تاريخ وقعتها إلى الشام نخوض بلاد الفرنج بالقوافل الثقيلة والحشود الكثيرة، والحريم المستور، والمال العظيم الموفور....»[5].

وكانوا يعزون الهزائم - أحياناً أخرى - الى استشراء الذنوب والمعاصي بين المسلمين، ويرون أنهم لو أطاعوا الله تعالى لمنَّ عليهم بالنصر فلا يلومُن الاّ أنفسهم، ولا يرجن إلاّ ربهم، وفي ذلك يقول القاضي الفاضل في رسالة بعث بها من مصر إلى صلاح الدين في أثناء حصار عكا «.... إنما أوتينا من قبل أنفسنا ولو صدقنا لعجل الله لنا عواقب صدقنا ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره، لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يختصم أحد إلاّ نفسه وعمله، ولا يرجُ إلاّ ربه»[6].

---

(١) سورة النحل: الآية (١).

(٢) سورة ص: الآية (٨٨).

(٣) سورة البقرة: الاية: ٢٤٩.

(٤) المقريزي: السلوك: ج١: ق٢: ص٣٣٤-٣٣٥.

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٢: ص٦٥.

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية: ج١٢: ص٣٦١، وانظر الروضتين: ج٢: ص ١٦٧.

وعندما سقطت عكا بيد الفرنج سنة ٥٨٧هـ، أرسل العماد الكاتب إلى صلاح الدين مواسياً ومهوّناً من شأن هذه الهزيمة، فقال : « . . . وإن ذهبت مدينة فلم يذهب الدين، وإن غاض معين فما غاب المعين، وإن ارتاب المبطلون، فما فارق الحق اليقين، وإن فتح المرتج فما فات المرتجى، وإن ادلهم الديجور، فلا بد أن يسفر عن الصبح الدجى »(١).

الجيش الإسلامي :

ووصف الناثرون في نثرهم تعبئة الجيش الإسلامي وتنظيمه وضخامته وقوته، وأشادوا بقادته الأبطال وفرسانه وراجليه الشجعان، وصوروا معاركه، ونوهوا بمعاملة المسلمين لأسراهم وغير ذلك.

تعبئة الجيش وتنظيمه وضخامته وقوته :

وصف الأدباء نظام تعبئة الجيش الإسلامي، وترتيبه، فبينوا أنه كان يقوم على نظام الصف الذي يرتب فيه الجيش خمسة أقسام هي: الميمنة، والميسرة، والقلب والجناحان، وهذا النظام كان معروفا لدى المسلمين منذ عهد الرسول (ﷺ) أو قبل ذلك(٢)، فقد عمد صلاح الدين قبل توجهه نحو حطين بيوم واحد إلى عرض عسكره، وترتيبهم أطلاباً، وأحزاباً « وعين رجال القلب، ومن يقف بالقلب، والميمنة وحماتها، والميسرة وكماتها، والجناحين وقوادهما من ذوي الإقدام، والمقدمة والساقة، على سنن النظام، وعيّن مواقف الرجال، ومواضع الأبطال، وعين الجاليشية(٣) من كل طلب بأسمائها ورماة أحداقها وحذاق

---

(١) العماد الكاتب : الفتح القسي : ص ٥١٩ .

(٢) مجلة المورد : العدد : ٤ المجلد : ١٢ شتاء سنة ١٩٨٣ : ص٧ (عدد خاص بالفكر العسكري عند العرب) .

(٣) الجاليش : ويقال شاليش أيضا وهي : كلمة تركية قديمة أو من الفارسية بمعنى حرب أو معركة، أو هو علم كبير في أعلاه خصلة من الشعر كالعرف (تكملة المعاجم العربية : رينهارت دوزي : ترجمة محمد سليم النعيمي : ج٢ : ص١٢٦) .

رماتها، وقررً هيأتهم في الركوب والنزول . . . »[١].

ووصف الكتّاب – أحياناً – ضخامة جيوش المسلمين وكثرة أعدادها فها هو العماد الكاتب يصف اجتماع العساكر الإسلامية تحت قيادة الملك الأفضل من أنحاء البلاد، وانتظام شمل أواخرها بأوائلها، وامتلاء الوهاد والذرى بها وبخيولها، فيقول: « . . . واجتمعنا بالعساكر وانتظم شمل الأوائل والأواخر، وخيمنا على عشترا [٢]، وقد غصّ بخيل الله الوهاد والذرى، واشتمل المعسكر على فراسخ عرضاً وطولاً، وملأنا الملأ حزناً وسهولاً، وعرضنا العسكر في اثنى عشر ألف مدجج . . . . »[٣].

كما يصور القاضي الفاضل ضخامة جيش صلاح الدين المتجه الى حطين فيقول: « . . وقد ورد السلطان للغزاة إلى بلاد الكفر في عسكر فيه عساكر، وفي جمع البادي فيه كأنه حاضر، وفي حشد يتجاوز أن يحصله الناظر، إلى أن لا يحصله الخاطر . . . . »[٤].

ووصف ابن الأثير استعداد الجيش الإسلامي الكامل في هذه الحروب للتضحية بالنفوس والأموال لإعلاء كلمة الله، فقال: « . . . نهضت الجيوش الإسلامية مجدة في تشمير ذيلها، معدة ما استطاعت من قوتها ومن رباط خيلها، تحمل الأعمار القصار تحت الأرماح الطوال، وترغب في اشتراء الجنة بالأنفس والأموال . . . . »[٥].

وهذا الجيش يجالد العدو نهاراً، ويرقبه ويحترس منه ليلاً، وفي ذلك يقول ابن الأثير « ولم يزل المسلمون على مسايرة العدو ومساورته، ومقابلته ومقاتلته،

---

(١) الفتح البنداري: سنا البرق الشامي: ص ٢٩٣.

(٢) عشترا: موضع بحوران جنوبي دمشق (ياقوت: معجم البلدان: ج٤: ص١٢٥).

(٣) الفتح البنداري: سنا البرق الشامي: ص٢٩٢–٢٩٣.

(٤) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص٧٥.

(٥) رسائل ابن الأثير: ص٦٧ (تحقيق القيسي وناجي).

حتى أقبل الليل...، وبات الناس يحرسون العدو على تيقظ وتحفظ، فما منهم إلا من أسهر عينه في ذات الله فأتعب، وليس فيهم إلاّ من لو رآه رسول الله (ﷺ) لقال أوجب....»[1].

وركز الأدباء على إبراز شجاعة الجيش الإسلامي، التي تبث الرعب في نفوس الأعداء، أكثر من تركيزهم على وصف عدد الجيش وعدته، فجنود الإسلام أبطال شجعان، وخيولهم قوية سريعة، وهم متمرسون بفنون الحرب، يخوضون غمارها بثبات وقوة، وفي ذلك يقول ابن الأثير واصفاً جند الملك الأفضل عند مهاجمتهم الفرنج بأرض طبرية: «.... ورماها بأسود على عقبان، وجلامد في غدران، من كل شهم يجرد من قلبه ما يجرده من عضبه، ويسدد من جنانه ما يسدده من سنانه، وكلهم ممن بلاه المولى وجربه، وسقاه من بأسه ودربه، فخاضوا الأرض يمشون بنجوم صعاد في سماء صعيد، ويعتصمون بدروع صبر لا دروع حديد، فلا مدد لهم إلاّ ما بأيديهم قائمة، ولا معقل إلاّ ما حملتهم قوائمه...»[2].

ويصف ابن الأثير شجاعة جند المسلمين وصبرهم واحتسابهم أيضاً، قائلاً: «.. وهؤلاء هم سيوف الله التي إذا جردت زالت الهام عن مناكبها، واستوى في القتل أنفس مضروبها وضاربها، فلا عليها إذا جاهدت صابرة محتسبة ما كان من موارد هلكها، ولا ألم عندها للكلوم إذا جاءت يوم القيامة، ولونها لون دمها، وريحها ريح مسكها...»[3].

ولم يكن هذا الجيش يتوقف عن الجهاد في سبيل الله صيفاً أو شتاء، فكان يسير لفتح أمنع الحصون في أقسى الظروف الجوية، حيث الأنواء العاتية، والثلوج المتراكمة، والأودية الفائضة، والوحول المعيقة للحركة، وفي ذلك يقول القاضي الفاضل: «... وكان نزولنا على كوكب والشتاء في كوكبه، وقد

---

(١) رسائل ابن الأثير: ص ٦٨ (القيسي وناجي).

(٢) المصدر السابق: ص٦٥.

(٣) ضياء الدين بن الأثير: الوشي المرقوم في حل المنظوم: ص٢٠٤.

طلع من الانواء في موكبه، والثلوج تنشر على الجبال طيّ ملائها، والأودية قد عجت بمائها، وفاضت عند امتلائها، فشمخت أنوفها سيولا، وخرقت الأرض وبلغت الجبال طولا، والأوحال اعتقلت الطرقات، ومشى المطلق فيها مشية الأسير في الحلقات، فتجشمنا العناء نحن ورجال العساكر، وكابرنا العدو والزمان، وقد تحرز الحظ المكابر، وعلم الله النية فأنجدها بفعلها، وضمير الأمانة فأعان على حملها، ونزلنا من رؤوس الجبال منازل كان الاستقرار عليها أصعب من ثقلها . . . »(١).

ولأن هذا الجيش يجاهد في سبيل الله، فقد أعزه الله بالنصر على أعدائه، وجعل ملائكته المسومين من أعوانه، وفي ذلك يقول العماد الكاتب: « . . . . وقد أظهر الله على المشركين الضالين جنوده المؤمنين العالمين، وقطع دابر القوم الظالمين، والحمد لله رب العالمين فكأن الله شرف هذه الأمة، وقال لهم: اعزموا على اقتناء هذه الفضيلة التي بها فضلكم ، وحقق في حقهم امتثال أمره في قوله الكريم ﴿ **ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم** ﴾(٢)، وهذا الفتح قد أقدره الله على افتضاضه بالحرب العوان، وجعل ملائكته المسومة له من أعز الأنصار، وأظهر الأعوان »(٣).

وهذا الجيش منصور بالرعب -كما يقول (ﷺ)-: « نصرت بالرعب مسيرة شهر »(٤) فها هم الفرنج يفرون هاربين، ويفكون الحصار عن تبنين(٥) سنة

---

(١) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص١٣٦.

(٢) الآية رقم (٢١) من سورة المائدة.

(٣) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص٩٧.

(٤) من الحديث الشريف: « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الارض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد من قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى الناس عامة » (فتح الباري في شرح البخاري: ج١: ص٤٣٦).

(٥) بلدة في جبال بني عامر المطلة على بانياس بين دمشق وصور (ياقوت: معجم البلدان: ج٢: ص١٤).

٥٩٤هـ عندما علموا بقدوم الملك العزيز لنجدته، «فإنهم تركوا الطريق للسيل الذي يضيق به كل واد، ولقوه بسلاح الهرب الذي رأوه أفضل من سلاح الجلاد...»[١].

وقد أشاد الناثرون في هذه الحقبة بالقادة المسلمين الأبطال الذين خاضوا غمار هذه الحروب، وأبلوا فيها بلاء حسناً، فوصفوا انتصاراتهم، ومجّدوا بطولاتهم، وأشادوا بجهادهم في سبيل الله لرد الغزاة الفرنج، وحماية المسلمين من شرورهم، وتحرير البلاد المحتلة من براثنهم.

وكان عماد الدين زنكي أول عظماء أبطال الحروب الصليبية، وقد ابتهج المسلمون بظهور هذا البطل الذي قلب الأوضاع لصالح المسلمين، إذ رأوا فيه قائداً فذاً في غاية الشجاعة وسداد الرأي، والنجدة، والشهامة، ونفاذ العزيمة، والقدرة على القيادة، واعتبروه هبة من الله لهم، ومنقذاً لهم مما هم فيه من الضعف والهوان، حتى قال ابن الأثير فيه: «.... فلما نظر الله تعالى إلى ملوك البلاد الإسلامية وأمراء الملّة الحنيفية، وما هم فيه من العجز عن نصرة الدين، والوهن في حماية الموحدين، ورأى قهر عدوهم لهم، وشدة صوله، وما نصب عليهم من ظل نكاله وويله، ارتاح للإسلام وأهله، وأنف من إذلال عدوهم لهم وأسره وقتله، فحينئذ أراد أن يسلط على الفرنج من بسوء أفعالها يجازيها، ويرسل على شياطين الصلبان رجوماً تهلكها وتفنيها، فنظر في جريدة شجعان أوليائه، وذوي الرأي والنجدة والشهامة من أصفيائه، فلم ير فيها أقوى على هذا الأمر من المولى الشهيد عماد الدين زنكي، ولا أثبت جنانا، ولا أمضى عزماً، ولا أنفذ سناناً، فولاه الثغور، ورعاية الجمهور... فغزا الفرنج في عقر ديارهم، وأخذ للموحدين منهم بثأرهم...»[٢].

وقد أشاد الأدباء بصفاته، فهو من أحسن الملوك سيرة، وأكثرهم حزماً،

---

(١) رسائل ابن الأثير: ص١٠٨ (تحقيق القيسي وناجي).

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص ٣٣-٣٤.

وضبطاً للأمور، فوصفه أبو الحسن بن الأثير بأنه «من أحسن سير الملوك، وأكثرها حزماً وضبطاً للأمور، وكانت رعيته في أمن شامل يعجز القوي عن التعدي على الضعيف»(١).

وكان في غاية الشجاعة والإقدام، وفي ذلك يقول أبو الحسن بن الأثير: «وأمّا شجاعته وإقدامه فإليه النهاية فيهما، وبه كانت تضرب الأمثال، ويكفي في معرفة ذلك جملة أن ولايته أحدق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب....، وكان ينتصف منهم، ويغزو كلا منهم في عقر داره، ويفتح من بلادهم...»(٢).

وكان ذا شخصية قوية ومهابة عظيمة، فقد «ركب يوما فعثرت به دابته، فكاد يسقط عنها، واستدعى أميراً كان معه، فقال له كلاما لم يفهمه، ولم يتجاسر على أن يستفهمه منه، فعاد إلى بيته، فودع أهله عازماً على الهرب...»(٣). وكان وفيا لأصحابه ومعاونيه من الأمراء لم يتغير على أحدٍ منهم دون ذنب يوجب ذلك التغيّر، ولهذا كانوا ينصحونه ويفتدونه بأرواحهم(٤).

وكان صائب الرأي(٥)، شديد الغيرة على نساء الأجناد، فإن التعرّض إليهن كان من الذنوب التي لا يغفرها، وكان يقول: «إن جندي لا يفارقوني في أسفاري، وقلما يقيمون عند أهلهم، فإن نحن لم نمنع من التعرض إلى حرمهم هلكن وفسدن...»(٦).

وكان كريماً كثير الصدقات، «فكان يتصدق كل يوم جمعة بمائة دينار أميري – ظاهراً – ويتصدق فيما عداه من الأيام سراً مع من يثق به...»(٧).

---

(١) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق١: ص١٠٩–١١٠.

(٢) المصدر السابق: ج١: ق١: ص١١٢.

(٣) المصدر السابق: ج١: ق١: ص١١٣–١١٤.

(٤) المصدر السابق: ج١: ق١: ص١١٤.

(٥) المصدر السابق: ج١: ق١: ص١١١–١١٢.

(٦) المصدر السابق: ج١: ق١: ص١١٢.

(٧) المصدر السابق: ج١: ق١: ص١١٣.

أما ولده نور الدين محمود فقد جمع «الصفات المثلى للقائد المسلم، وقد أضفى عليه الأدباء صفات الصالحين الأتقياء، وشبّهوه بالخلفاء الراشدين والصحابة»[١] لأنهم وجدوا فيه «أمل أمة، وتطلعات جماعة»[٢].

فقد كان نور الدين تقياً كثير التعبد لله «يصلي كثيراً بالليل، وله فيه أوراد حسنة»[٣]، وكان محافظاً على أصول الدين، مطبقاً للشريعة المطهرة، يقف عند أحكامها ويقول: «نحن شحن[٤] لها نمضي أوامرها»[٥] وكان من أحسن الملوك سيرة بعد الخلفاء الراشدين، وأكثرهم تحرياً للعدل، وجهاداً وإنفاقا في سبيل الله، وفي ذلك يقول أبو الحسن بن الأثير: «طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام، وفيه إلى يومنا هذا، فلم أرَ فيها بعد الخلفاء الراشدين، وعمر بن عبد العزيز ملكاً أحسن سيرة من الملك نور الدين، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه، وقد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجهز له ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، وإحسان يوليه وإنعام يسديه، ونحن نذكر ما يعلم به محله في أمر دنياه وأخراه، فلو كان في أمة لافتخرت به، فكيف في بيت واحد؟!»[٦].

وكان شجاعاً مقداماً حسن الرمي، شديد الضرب للأعداء في الحرب، وكان يتقدم أصحابه في القتال طلباً للشهادة، وكان حريصاً على عمل الخير عفيفاً، مقتصداً في الإنفاق، متحرّياً للحلال في مأكله وملبسه، مهذباً لم تسمع منه كلمة فحش في الرضى والغضب، وقد وصف الحافظ ابن عساكر ذلك قائلاً: «.. وكان في الحرب ثابت القدم، حسن الرمي، صليب[٧] الضرب، يقدم أصحابه

---

(١) محمود فايز سرطاوي: نور الدين زنكي في الأدب العربي: ص١٣٠ (رسالة ماجستير).

(٢) محمود ابراهيم: صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني: ص ١٥٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل: ج١٠: ص ٥٧.

(٤) الشحن: من فيهم الكفاية لضبط البلد من أولياء أمور السلطان (لسان العرب: مادة شحن). و (Dozy, supp. Dict, Tome I,P.733)

(٥) ابن قاضي شهبة: الكواكب الدرية: ص٢٠.

(٦) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق١: ص١١.

(٧) الصليب: الشديد (اللسان: مادة: صلب).

ويتعرض للشهادة، وكان يسأل الله تعالى أن يجمعه من بطون السباع وحواصل الطير... وكان حسن الخط كثير المطالعة للكتب الدينية.... حريصاً على فعل الخير، عفيف البطن والفرج، مقتصداً في الإنفاق، متحرياً في المطاعم والملابس، لم تسمع منه كلمة فحش في رضاه ولا في ضجره، وأشهى ما إليه كلمة حق يسمعها، أو إرشاد إلى سُنة يتبعها...»(١).

وكان وقوراً ومهيباً وحازماً، وفي ذلك يقول ابن الأثير: «وأمّا هيبته ووقاره فإليه النهاية فيهما، ولقد كان - كما قيل - شديداً في غير عنف، رقيقاً في غير ضعف، واجتمع له ما لم يجتمع لغيره، فإنه ضبط ناموس الملك مع أجناده وأصحابه إلى غاية لا مزيد عليها، وكان يلزمهم بوظائف الخدمة الصغير منهم والكبير»(٢).

وكان - على الرغم من سعة مملكته وكثرة أموالها - زاهداً متعبداً «لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلاّ من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة، ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين، أحضر الفقهاء واستفتاهم في أخذ ما يحل له من ذلك فأخذ ما أفتوه بحلّه، ولم يتعده إلى غيره البتة، ولم يلبس قط ما حرمه الشرع من حرير او ذهب أو فضة، ومنع من شرب الخمر وبيعها في جميع بلاده، ومن إدخالها إلى بلد ما، وكان يحدّ شاربها الحدّ الشرعي، كل الناس عنده فيه سواء....»(٣).

وكان يوجّه كل عنايته ويقضي جل وقته في تدبير شؤون رعيته وإصلاح أمورها، وكان هدفه الأول رفع شأن الإسلام، وتدعيم أركانه عن طريق بناء الربط والمساجد ودور العلم، وفي ذلك يقول ابن الأثير: «وأما زمانه فهو مصروف إلى مصالح الناس، والنظر في أمور الرعية، والشفقة عليهم، وأما فكره ففي إظهار شعار الإسلام،

---

(١) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق١: ص١٠-١١.

(٢) المصدر السابق: ج١: ق١: ص٢٣.

(٣) المصدر السابق: ج١: ق١: ص١١.

وتأسيس قاعدة الدين من بناء الرّبط والمساجد، حتى أن بلاد الشام كانت خالية من العلم وأهله، وفي زمانه صارت مقرّا للعلماء والفقهاء والصوفية »[١].

وقد خلّد بعض الناثرين بطولات بعض القادة العسكريين الذين أبلوا في مواجهة الفرنج وأعوانهم بلاء حسنا، ومن أشهر هؤلاء القادة أسد الدين شيركوه إذ أسبغوا عليه صفات الشجاعة والبراعة، والقوة، والصبر على المكاره، والشّدة على الكفار، والعفة ومحبة أهل العلم والدين والإيثار، والرأفة بالأهل والأقارب فقد وصف بأنه « كان شجاعاً، بارعاً قوياً، جلداً في ذات الله، شديدة على الكفار وطأته، عظيمة في ذات الله صولته، عفيفاً ديّناً كثير الخير، وكان يحب أهل الدين والعلم، كثير الإيثار، حدباً على أهله وأقاربه »[٢].

وبعد وفاة نور الدين محمود بقي المسلمون في بلاد الشام، يترقبون بفارغ الصبر ظهور قائد جديد يسد الفراغ الذي أحدثته وفاته حتى ظهر صلاح الدين الأيوبي الذي أعاد توحيد مملكة نور الدين تحت سلطانه، ثم حشد كل الطاقات ووجّهها إلى مقاومة الصليبيين ودحرهم، فأحاط به الأدباء وسجلوا معاركه، وصوروا بطولاته، وخلدوا انتصاراته، وأشادوا بجهاده في سبيل الله، ومجّدوا صفاته الرفيعة، فكان – في نظرهم – « صلاح الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، جامع كلمة الايمان، قامع عبدة الصلبان، رافع علم العدل والإحسان.... والسلطان الذي أحيا سنّة الخلفاء الراشدين، وأقام عمود الدولة والدين... »[٣].

كما صوروا فيه مزايا القائد المسلم، إذ كان تقياً حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى، محافظاً على الصلاة جماعة[٤]، وكان يقرأ الحديث بنفسه « حسن الظن بالله كثير الاعتماد عليه، عظيم الإنابة إليه.. »[٥]، مواظباً على

---

(١) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق١: ص٣٤..

(٢) المصدر السابق: ج١: ق٢: ص٤٣٨.

(٣) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٦٤.

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص ٧-٨.

(٥) المصدر السابق: ص١٠.

تلاوة القرآن الكريم، عاملاً به[١].

وكان رحيماً عادلاً «ناصرا للضعيف على القوي. أمّا كرمه -كما يقول ابن شداد-، فكان «أظهر من أن يسطر، وأشهر من أن يذكر.... وكان - رحمه الله - يهب الأقاليم، وفتح آمد، وطلبها منه ابن قرة أرسلان، فأعطاه إياه.... وكان - رحمه الله - يعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة»[٢] وكان حب الجهاد في سبيل الله قد استولى على قلبه[٣]، وكان في جهاده صابراً محتسباً فقد رآه ابن شداد، «وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل، كانت ظهرت من وسطه إلى ركبتيه، بحيث لا يستطيع الجلوس، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على الأطلاب، ومن العصر إلى صلاة المغرب، وهو صابر على شدة الألم، وقوة ضربان الدماميل...»[٤].

وكان جهاده خالصاً لوجه الله بعيداً عن الرغبة في كسب مادي أو دنيوي ففي وقعة تل حطين، وفي أثناء حصار ثغر طبرية لم «يبق إلاّ أن يهد بإضرام ناره، ويدخل عليه من أقطاره، فأراد أهله أن ينهوا[٥] طيش القتال، بثقل الأموال، فأبت ذلك نفس ترجو ثواب الله بمجاهدة أعدائه، وترغب في المفدي نفسه[٦] لا في فدائه، ولو لم يكن جهادها احتساباً لأبت أن يكون اكتساباً، فإن النفوس الأبية في دق الفرائس، أرغب من إدخال النفائس...»[٧].

وكان - كما يقول ابن شداد - «من عظماء الشجعان، قوي النفس، شديد البأس، عظيم الثبات، ولا يهوله أمر، ولقد رأيته - رحمه الله - مرابطاً في مقابلة

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص١٣.

(٢) المصدر السابق: ص١٧.

(٣) المصدر السابق: ص٢١.

(٤) المصدر السابق: ص٢٤.

(٥) في رسائل ابن الأثير: أن ينهنهوا طيش القتال: ولعل الصواب أن ينهوا طيش القتال.

(٦) في رسائل ابن الأثير: المغذي نفسه، ولعل الصواب: المفدي نفسه.

(٧) رسائل ابن الأثير: ص٦٧ (تحقيق القيسي وناجي).

عدّة عظيمة من الفرنج ونجدهم تتواصل، وعساكرهم تتواتر، وهو لا يزداد إلاّ قوة نفس وصبر....»[1]، وكانت رغبته في الجهاد لا حدَّ لها إذ قال لابن شداد: «في نفسي أنه متى يّسر الله تعالى فتح بقية الساحل، قسّمت البلاد، وأوصيت وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم (جزائر الفرنج) أتتبعهم فيها حتى لا أبقي على وجه الارض من يكفر بالله أو أموت»[2] وكان حريصاً على نيل الشهادة وكان حليماً، حسن العشرة، لطيف الاخلاق، محافظاً على أسباب المروءة، حسن العهد والوفاء[3].

وكان من الطبيعي أن يرثي الناثرون القادة الأبطال عند استشهادهم أو وفاتهم، فيسجلوا مآثرهم، ويصوروا جلال الرزء بفقدهم، فها هو أبو الحسن بن الأثير يرثي عماد الدين زنكي الذي غدر به عبيده، فيصور خسارة المسلمين بفقده، إذ أفل نجم أعظم ملوكهم، وأكرمهم يداً، وأشجعهم قلباً، وأحسنهم سياسة، وأمنعهم ملكاً، فيقول: «.... فأضحى وقد خانه الأمل، وأدركه الأجل، وتخلى عنه العبيد والخول، فأي نجم للإسلام أفل، وأي ناصر للإيمان رحل، وأي بحر ندى نضب، وأي بدر مكارم غرب، وأي أسد افترس، ولم ينجه قلة حصن ولا صهوة فرس، فكم أجهد نفسه لتمهيد الملك وسياسته، وكم أدّبها في حفظه وحراسته، فأتاه مبيد الأمم ومفنيها في الحدث والقدم، فأصاره بعد القهر للخلائق مقهورا، وبعد وثير المضاجع في التراب معفرا مقبورا...»[4].

وكانت لوفاة نور الدين محمود رنّة أسى عميقة في نفوس المسلمين، فقد كانوا يأملون في استرداد بيت المقدس على يديه، وقد رثاه الأدباء، فأشادوا بمناقبه الرفيعة، ومواقفه المشرفة في الذود عن الإسلام والمسلمين، وصوروا جسامة فجيعة المسلمين بفقده، التي أصمت الأسماع، وأهمت القلوب، وجرحت الافئدة،

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص ١٩.

(٢) المصدر السابق: ص٢٢.

(٣) المصدر السابق: ص٢٨-٣٠.

(٤) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق١: ص١٠٨.

وثلمت جانب الدين، وابتهلوا إلى الله أن يدخله الجنة، جزاء لذبّه عن الإسلام والمسلمين....، ومن ذلك ما كتبه القاضي الفاضل عن صلاح الدين معزياً بوفاته فقال: «..كتابنا هذا إلى الأمير، معزين بالرزء الذي كملت أقسامه وتمت، ورمت أحداثه القلوب فأصمت، وطرقت أحاديثه الأسماع فأصمت، وأبى أن تعفو كلومه، وكاد لأجله الافق تنكسف بدوره، وتنكدر نجومه، وثلم جانب الدين لفقد من لولاه لدرست أعلامه، ولم تدرس علومه، وفجأ فاستولى على كل قلب وجيبه، وعلى كل خاطر وجومه، بانتقال المولى نور الدين إلى سكنى دار السلام، وقدومه على ما أعده الله له من جزاء ذبّه عن الإسلام...»[1].

ومن ذلك - أيضاً - كتاب أنشأه العماد الكاتب عن الملك الصالح إلى صلاح الدين في تعزيته بنور الدين، وفيه: «أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر، وعظم أجرنا وأجره في والدنا الملك العادل، ندب الشام، بل الإسلام، حافظ ثغوره، وملاحظ أموره، ومقدام الجهاد، مقتني فضيلته، ومؤدي فريضته، ومحيي سنته، وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره، على أنه يعز أن يرى الزمان نظيره...»[2].

وصور الناثرون الذهول الذي أصاب المسلمين لوفاة صلاح الدين الأيوبي، «فهم يستعظمون هذا الموت، ولا يجدونه فناء فرد، ولكنه فناء آمال أمة»[3].

وقد نقل ابن شداد مشاهد حيّة مؤثرة لما أصاب المسلمين يوم وفاته، إذ كان «يوماً لم يصب المسلمون والإسلام بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون، وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة ما لم يعلمها إلا الله تعالى، وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم، وما سمعت هذا الحديث إلاّ على ضرب من التجوز والترخص إلاّ ذلك اليوم، فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفدي بالنفس...، وكان يوماً عظيماً قد

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى: ج٧: ص٢٩.

(٢) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٥٨٦.

(٣) أحمد بدوي: الحياة الأدبية في عصر الحروب الصليبية: ص٥١٥.

شغل كل إنسان ما عنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر إلى غيره... وكان أولاده يخرجون مستغيثين بين الناس، فتكاد النفوس تزهق لهول منظرهم...»[١].

ولا شك أن هذه المشاهد «تتفوق في تصويرها للأجواء التي خيمت على الأمة يوم وفاة هذا البطل على ما وصلنا من شعر قيل في رثائه»[٢].

وأبلى فرسان المسلمين في هذه الحروب بلاءً حسناً، واسترعت شجاعتهم وقوتهم وحسن بلائهم في مقارعة الفرنج نظر الأدباء، وقد روى أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» كثيراً من بطولات أولئك الفرسان الأبطال[٣].

فقد كان والد أسامة وعمّه من أشجع فرسان قومهما[٤]، وكان أبوه «كثير المباشرة للحرب، وفي بدنه جراح هائلة...»[٥]، وكان أخوه عز الدولة أبو الحسن من فرسان المسلمين[٦] وكان «يقاتل للدين لا للدنيا»[٧].

أما أسامة نفسه، فقد كان «أحد أبطال الإسلام»[٨]، وكان «من الشجاعة في الغاية التي لا مزيد عليها»[٩]، إذ خاض المعارك، واقتحم المخاوف والأخطار وقتل الأسود[١٠].

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص٢٤٦-٢٤٧.

(٢) شفيق الرقب: اتجاهات الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: ص٩١.

(٣) أسامة بن منقذ: الاعتبار. ص ٣٦-١٠٢.

(٤) المصدر السابق: ص٥١-٥٢، ٥٥-٥٦.

(٥) المصدر السابق: ص٥١.

(٦) كان أميراً، فارساً مجاهداً، قرض الشعر، وصحب أخاه أسامة في بعض تنقلاته وغزواته، واستشهد في سنة (٥٤٨هـ/١١٥٣م). (العماد الكاتب: خريدة القصر: قسم شعراء الشام: ج١: ص٥٤٨-٥٥١).

(٧) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٦.

(٨) الذهبي: تاريخ الإسلام: المجلد٢٧: الورقة ١٤.

(٩) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق١: ص ٣٢٧.

(١٠) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٦٣.

وقد استطاع مع فارس آخر أن يهزما ثمانية فرسان من الفرنج[١]. كما تصدى مع أقل من عشرين فارساً لجمع كبير من مقاتلي الفرنج، وحمى خلقاً كثيراً من النهّابة المسلمين العزّل في إحدى مواقعه، وهان عليه الموت في سبيل حماية ذلك الجمع الكبير[٢].

وذاك فارس يدعى ياقوت الطويل طعن فارساً من الفرنج وإلى جانبه فارس آخر «فرمى الفارسين والفرسين»[٣].

وآخر من بني كنانة قطع رجله بنفسه بناء على نصيحة الطبيب ثم استمر في ركوب الخيل، وكان «يركب في سرجه بركاب واحد، وفي الجانب الآخر سير تكون فيه ركبته، ويحضر القتال، ويطاعن الفرنج وهوعلى تلك الحال...، ولا يستطيع رجل يشابكه ولايقابضه»[٤].

وذاك فارس آخر كبر وضعف بصره فطلب منه أمير شيزر أن يتقاعد، وأن يلتزم العبادة في المسجد، ولكنه لم يطق صبرا على القعود عن الجهاد، فعاد إلى الجهاد قائلاً: «... وقتلي على فرسي أشهى إلى نفسي من موتي على فراشي» وعندما غزا الفرنج شيزر شارك في صدهم وقتل أحد فرسانهم[٥].

وامتاز الراجلون المسلمون بالشجاعة والإقدام - أيضاً - فعندما عثر نمير العلاروزي - وهو راجل شجاع أيّد من رجال شيزر - على قافلة من الإفرنج في مغارة دفع إليهم سيفه وترسه وجذب سكينه ودخل عليهم، فاستقبله رجل منهم فضربه بالسكين ورماه وبرك عليه فقتله، ثم قام يقاتل الآخرين حتى استشهد[٦].

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص٥٧-٥٨.

(٢) المصدر السابق: ص٤٠-٤١.

(٣) المصدر السابق: الاعتبار: ص٥٠-٥١.

(٤) المصدر السابق: ص١٤٦.

(٥) المصدر السابق: ص٥٠.

(٦) المصدر السابق: ص٧٧.

وقابض راجل آخر أعزل إفرنجيا «فرماه ولكم وجهه، وعليه اللثام والزرد حتى أسكره، وأخذ سيفه وقتله به، وتهرأ الجلد الذي على عقد أصابعه»(١).

وعندما هاجم فرسان أنطاكية من الفرنج شيزر خرج راجلون كثيرون، «فحمل عليهم الفرنج حملات عديدة، فما زعزعوهم من مكانهم»(٢).

المرأة المسلمة:

أسهمت بعض النساء المسلمات – آنذاك – في جهاد الأعداء عن طريق تربية أبنائهن على الشجاعة والشرف، وإثارة حميتهم للدفاع عن أهلهم وأعراضهم حتى النصر أو الشهادة، أو عن طريق الفتك بالأزواج الخونة، أو عن طريق مباشرة الحرب بأنفسهن.

فعندما هاجم الإسماعيلية شيزر، وزعت أم أسامة بن منقذ أسلحة ابنها على المقاتلين لأنه لم يكن – آنئذ – في الحصن(٣)، وفي هذه الموقعة عزم ابن عم أسامة على الفرار من حصن شيزر، فشاهدته زوجة عمه – وكانت تشارك في القتال – فعنفته على هذا التخاذل والفرار قائلة له: «بئس ما تفعل، تخلي بنات عمك للحلاجين وتروح؟! أي عيش يكون عيشك إذا افتضحت في أهلك، وانهزمت عنهم؟! اخرج قاتل عن أهلك حتى تقتل بينهم. فعل الله بك وفعل، ومنعته – رحمها الله – من الهرب، وكان من الفرسان المعدودين بعد ذلك»(٤). ولبست زوجة عمه هذه الخوذة والدرع وحملت السيف والترس، ووقفت تقاتل المهاجمين(٥). وتلثمت الجارية العجوز فنون، وأخذت سيفاً وخرجت إليهم، وظلت تقاتلهم حتى تكاثر عليهم أهل الحصن(٦)، وفي موقعة أخرى أسرت

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٤٩.

(٢) المصدر السابق: ص٦٧.

(٣) المصدر السابق: ص١٢٤.

(٤) المصدر السابق: ص١٢٤.

(٥) المصدر السابق: الاعتبار: ص١٢٤.

(٦) المصدر السابق: ص١٢٥.

امرأة شيزرية ثلاثة من الإفرنج، «وأخذت ما كان معهم وما صلح من سلبهم، وخرجت دعت قوماً من جيرانها قتلوهم»[١].

وهذه امرأة مسلمة انضم زوجها للإفرنج ضد المسلمين، «فكان ينهض بالإفرنج إلى المسلمين يغنمهم، ويبالغ في أذى المسلمين وأخذ أموالهم وسفك دمهم حتى قطع سبل المسافرين، وله امرأة معه بكفر طاب – تحت يدي[٢] الإفرنج – تنكر عليه فعله وتنهاه فلا ينتهي، فنفذت أحضرت نسيباً لها من بعض الضياع – وأظنه أخاها – وأخفته في البيت إلى الليل، واجتمعت هي وهو على زوجها علي عبد بن أبي الريداء، قتلاه واحتملا بجميع مالها، وأصبحت عندنا [عند آل منقذ] بشيزر، وقالت: غضبت للمسلمين مما كان يفعل بهم هذا الكافر»[٣].

وهذه امراة مسلمة أخرى – في نابلس – كانت مزوجة لرجل إفرنجي، فقتلته، وكان ابنها يحتال على الإفرنج، ويتعاون هو وأمه على قتلهم[٤].

وصف المعارك:

وصف الكتاب المعارك الكبيرة التي وقعت بين الطرفين، ولا سيما أن بعضهم كان يرافق – أحياناً – الجيوش الإسلامية في حروبها[٥]، فصوروا في نثرهم تلك المعارك، ووصفوا كثرة الفرنج وقوتهم، وأسلحتهم، وقوة المسلمين، وإخلاصهم في جهادهم لاستئصال شأفة الفرنج الغزاة من ديارهم، ومن ذلك قول ضياء الدين بن الأثير في وصف معركة حطين: «... فلما أضاء النهار ركبت خيل الكفر وخيل الإيمان، وتقابل حزب الله وحزب الشيطان، ولم تزل الحرب تشن والكر ناشٍ، ونارها تشب والموت غاشٍ، إلى أن تصافحوا بالصفاح بعد أن تحيوا بالرماح، فلم

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٢٩.

(٢) الصواب: أيدي.

(٣) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١٢٨.

(٤) المصدر السابق: ص ١٣٩–١٤٠.

(٥) أبو شامة المقدسي: الروضتين: ج٢: ص٧٨، وابن شداد النوادر السلطانية: ص٩٣، ١٠٩، ١١٤، ١٢٩– ١٣١، ١٤٧–١٥٠، ١٨٣–١٨٤ وغيرها.

نَرَ إلاّ لُبّا مطاشا، وموارد دم تردها الصوارم عطاشا، وليل نقع جعل النهار لباسا، والأرواح معاشا، وكان إلى جانب العدو عشب قد أخذ في الخمود، وتهيأ للوقود، فأرسل المسلمون فيه النار، وهي سلطان ما أعظمه!، وأرسل الله عليه سلطان الريح فأججه وضرّمه، فقوتلوا بحد النار وحد الحديد . . . »[1]، ثم وصف استماتة الفريقين في القتال ، وما جرى بينهما من كر وفر، ثم انتقل إلى وصف رجحان كفة المسلمين في المعركة على الفرنج فقال: « . . . . وعند ذلك هاجمهم المسلمون هجما، وهدموا بناءهم هدما، وطغى بهم الخطب كما طغى الماء، وما بكت عليهم الأرض ولا السماء، وجيء بالأسرى كالأنعام المعقلة، والصور الممثلة، خاشعة أبصارهم، دامية أبشارهم . . . ، ثم جيء بملكهم المتوّج، وقرمهم المدجج، وقد بدّل عزه ذلا وطوقه غلا، وبقلبه من الخوف ما سلب عقله، وأنساه ذحلـه[2]. ولما فصلت الحرب حاز المسلمون من الغنائم أوقارا، ومحوا من الصحائف أوزارا . . . »[3].ومما يسترعي النظر أن معظم الأدباء كانوا يركزون – غالباً – على نتائج المعارك أكثر من تركيزهم على وصف دقائقها وتفصيلاتها[4]، فهونوا من شأن انتصارات الفرنج، وعظموا من شأن انتصارات المسلمين، ومن أمثلة ذلك المشهد المفزع الذي رسمه العماد الكاتب لحال الجيش الفرنجي في نهاية معركة حطين حيث قال: « . . وأحيط بالفرنج من حواليهم، ودارت الدوائر عليهم، وترجوا خيرا فترجلوا عن الخيل، وجرفهم السيف جرف السيل، وملك عليهم الصليب الأعظم، وذاك مصابهم الأعظم، وقتلوا وأسروا بأسرهم، فمن شاهد القتلى، قال: ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى، قال: ما هناك قتيل، ومنذ استولى الفرنج على ساحل الشام ما شفي للمسلمين كيوم حطين غليل . . .

---

(١) رسائل ابن الأثير: ص ٦٨ (تحقيق هلال ناجي).

(٢) ذحلة: ثأره (اللسان: مادة : ذحل).

(٣) رسائل ابن الأثير: ص٦٨–٦٩ (تحقيق القيسي وناجي).

(٤) عبد القادر أبو شريفة: صورة الصليبيين في الأدب العربي: ص١٢٥.

وعبرت بها [أرض معركة حطين] فألفيتها محل الاعتبار، وشاهدت ما فعل أهل الإقبال بأهل الإدبار . . . ورأيت الرؤوس طائرة، والنفوس بائرة، والعيون غائرة، والجسوم رسمتها السوافي، والرسوم درستها العوافي، وأشلاء المشلولين في الملتقى ملقاة بالعراء عراة، ممزقة بالمآزق، مفصلة المفاصل، مفرقة المرافق، مفلقة المفارق، محذوفة الرقاب، مقصوفة الأصلاب، مقطعة الهام، موزعة الأقدام، مجدوعة الآناف، منزوعة الأطراف، مفقوءة العيون، مبعوجة البطون، منصفة الأجساد، مقصفة الأعضاد، مقلصة الشفاه، مخلصة الجباه، سائلة الأحداق، مائلة الأعناق، عديمة الأرواح، هشيمة الأشباح، كالأحجار بين الأحجار، عبرة لأولى الأبصار، ولما أبصرت خدودهم ملصقة بالتراب، وقد قطعوا آرابا، تلوت قول الله تعالى ﴿ **ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً** ﴾ . . »[1].

معاملة المسلمين للأسرى :

عامل المسلمون – غالباً – سكان المدن والقرى المستردّة والأسرى من الفرنج معاملة رحيمة متسامحة، وترفعوا عن الثأر والبطش.

فعندما فتح عماد الدين زنكي الرّها أمر عساكره برد ما غنموه من« أثاث ومال، وسبي ورجال، وجوارٍ وأطفال، فردوا عن آخرهم لم يفقد منهم إلاّ الشاذ النادر »[2].

وعندما استرد صلاح الدين بيت المقدس أمن أهلها على أنفسهم وكانت قاعدة الصلح بينهم أنهم قطعوا على أنفسهم قطيعة[3]، وترك لهم حرية البقاء أو المغادرة[4].

وكان صلاح الدين يعامل أسراه بالرحمة والتسامح، وقد قدم لنا ابن شداد

---

(١) أبو شامة المقدسي : الروضتين: ج٢ : ص٧٨، والآية رقم (٤٠) من سورة النبأ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر : ص٦٩ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية : ص٨٢ .

(٤) ابن الأثير : الكامل : ج١٠ : ص١٥٦-١٥٩ .

صورة حية لتلك المعاملة الإنسانية النادرة في جو الحرب والانتقام، فقال: « .... فأحضر الناس أسراهم – وكنت حاضراً ذلك المجلس – وقد أكرم – رحمه الله – المقدمين منهم، وخلع على مقدم عسكر الإفرنسيس فروة خاصة، وأمر لكل واحد من الباقين بفروة .... وأحضر لهم طعاما أكلوه، وأمر لهم بخيمة نصبت قريبا من خيمته، وكان يكارمهم في كل وقت، ويحضر المقدم على الخوان في بعض الأوقات... وأذن لهم في أن يراسلوا أصحابهم، وأن يحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون إليه من الثياب وغيرها »(١).

وعندما شاهد مرة بين الأسرى شيخاً طاعناً في السن، لم يبق في فمه ضرس، رق له، « ومّن عليه وأطلقه، وأعاده راكباً على فرس إلى عسكر الأعداء »(٢)، كما رفض أن يأذن لأولاده الصغار في قتل أسير « لئلا يعتادوا من الصغر سفك الدماء، ويهون عليهم ذلك »(٣).

ولكن صلاح الدين نفسه كان شديدا وحازما في معاملة من اقترفوا جرائم من الفرنج، فقد أصر على قتل الجند الذين بعث بهم أرناط صاحب الكرك للاعتداء على البيت الحرام، وعلى قبر الرسول (ﷺ) وإخراجه من ضريحه، بعدما قتل قائد الأسطول المصري بعضهم، وأسر الباقين، فأمر أخاه العادل بمصر أن يقتلهم جميعاً لردع أمثالهم عن ارتكاب مثل تلك الأعمال الشنيعة قائلاً: « .... وليس في قتل هؤلاء الكفار مراجعة، ولا للشرع في إبقائهم فسحة، ولا في استبقاء واحد منهم مصلحة، ولا في التغاضي عنهم عند الله عذر مقبول، ولا حكم الله في أمثالهم عند أهل العلم بمشكل ولا مجهول، فليمض العزم بقتلهم ليتناهى أمثالهم عن فعلهم.... »(٤).

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص١٥١.

(٢) المصدر السابق: ص١٥٦.

(٣) المصدر السابق: ص١٥٩.

(٤) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص٣٦.

وقتل أرناط نفسه عندما وقع أسيراً في معركة حطين، وأمر بقتل الأسرى من الاسبتارية والداوية، لأنهم كانوا شديدي الأذى للمسلمين[١].

الجيش الصليبي:

وصف الناثرون الجيش الفرنجي فتحدثوا عن تعدد الأجناس المشتركة فيه، وكثرة فرقه ورجاله، وقوته وتنظيمه وأقسامه، وسرعة إنجاده وكثرة إمداداته، وشجاعة قادته وفرسانه ورجالته، وغيرتهم على عقيدتهم وبراعتهم في القتال، ومساهمة النساء في الحرب، وقوة أسلحة هذا الجيش وتعدد أنواعها، ومناعة حصون الفرنج وقلاعهم.

تعدد الأجناس المشتركة فيه:

اشتركت معظم الدول الأوروبية في هذه الحروب الطاحنة، وتعددت الأجناس المشتركة في جيوشهم الغازية «واجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربية، والألسنة الأعجمية، من لا يحصر معدوده، ولا يصور في الدنيا وجوده، فما أحقهم بقول أبي الطيب:

تجمع فيه كل لسن وأمة ... فما تفهم الحداثَ إلا التراجمُ[٢]

حتى أنه إذا أسر الأسير، وا ستأمن المستأمن احتيج في فهم لغته إلى عدة تراجم ينقل واحد عن آخر، ويقول ثان ما يقول أول، وثالث ما يقول ثان....»[٣].

وتعددت فرقهم الحربية، وأشهرها فرقتا الداوية (Templars)[٤] وهم فرسان

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص٧٧.

(٢) ديوان المتنبي: ج٣: ص٣٨٥ (ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان في شرح الديوان).

(٣) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص١٨٥.

(٤) الداوية: طائفة من فرسان الفرنج حبسوا أنفسهم لقتال المسلمين، وامتنعوا عن النكاح وغيره، ولم تكن عليهم لأحد طاعة، وقد أطلق المسلمون هذا الاسم على فرسان المعبد (Templars) وهم الجماعة التي أسسها (Hugue de payens) سنة (٥١٣هـ/١١١٩م) لحماية طريق الحجاج النصارى بين يافا والقدس، ثم أصبحت هيئة دينية حربية لها شأنها في تاريخ الحروب الصليبية.

(Henry Treece: The Crusades: pp, 172-174, 198)، وسعيد عاشور: الحركة الصليبية: ج١: ص٤٨٧ - ٤٨٨).

المعبد، والاسبتارية (Hospitallers)[١]، وهم فرسان المستشفى، اللتان كانتا من أكثر فرق الفرنج إيذاء للمسلمين، «فما جرت عادتهما بالمفاداة، ولا يقلعان عن المعاداة، ولا يخدمان في الأسر، وهما أخبث أهل الكفر....»[٢]، ونظراً لذلك فإن السلطان الحليم صلاح الدين الأيوبي الذي كان يتحفظ كثيراً في قتل الأسرى قدّم جائزة كبيرة لكل من يقتل او يأسر فارساً من الداوية، كما أمر بقتل مقدمي الاسبتارية والداوية بعد معركة حطين[٣].

ووصف الأدباء جيوش الفرنج بالكثرة والقوة، إذ كانوا لا يدخلون معركة كبيرة إلاّ في جيش جَمّ العدد، وافر العدة، فعندما حاصر عماد الدين زنكي حصن الأثارب سنة ٥٢٤هـ خرج الفرنج بفارسهم وراجلهم، وأمرائهم وكنودهم، فامتلأت بهم أرض المعركة، وقد وصف أبو الحسن بن الأثير ذلك قائلاً: «.... فحينئذ اهتموا بجمع الفرسان والأجناد، وأحضروا من في أطراف البلاد، وجمعوا الداني والقاصي، والمطيع والعاصي، وأقبلوا في جموعهم المحشورة، وعساكرهم المجرورة، وأعلامهم المنشورة، وصلبانهم وبنودهم، وملوكهم وفرسانهم وكنودهم، وجاؤوا إليه وقد غص بهم من الأرض جنوبها، وامتلأت منهم شمالها وجنوبها....»[٤].

وعندما قصد نور الدين محمود حارم سنة ٥٥٩هـ بلغ الخبر فرنج الساحل، فحشدوا جيوشهم لملاقاته بعد أن «جمعوا من الراجل ما لا يقع عليه الإحصاء، وقد ملأوا الارض، وحجبوا بقسطلهم السماء...»[٥].

---

(١) الاسبتارية: أو الهسبتاليون (Hospitallers): جماعة أخرى من فرسان الصليبيين لها كثير من خصائص الداوية، تأسست بعد استيلاء الصليبيين على القدس سنة (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م) وكان هدفها الأول علاج المرضى وإيواء الحجاج ومساعدتهم. (سعيد عاشور: الحركة الصليبية: ج١: ص٤٨٦ – ٤٨٧)، و (Henry Treece: The Crusades: pp. 171-172, 198.).

(٢) أبوشامة: الروضتين: ج٢: ص٧٩.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص٧٧.

(٤) ابن الأثير: الباهر: ص: ٤٠.

(٥) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٣٤٠–٣٤١.

ووصف القاضي الفاضل كثرة الإفرنج الذين هاجموا دمياط سنة ٥٦٥هـ بقوله: «.... ووصلوا إليها بالعدد المجمهر، والحشد الأوفر، وخصوصاً في نوبة دمياط، فإنهم نازلوها بحراً في ألف مركب مقاتل وحامل، وبراً في مائتي ألف فارس وراجل...»(١).

وفي معركة حطين جمع الفرنج جيشاً ضخماً - كما يقول العماد الكاتب: «.... وخرجوا عن العدد والإحصاء، وكانوا عدد الرمل والحصى، وصاروا في زهاء خمسين ألفاً أو يزيدون...»(٢)، ووصف العماد الكاتب - أيضاً - جيش ملك الألمان قائلاً: «..... إنه خرج في ثلاثمائة ألف مقاتل، فمن كل سالب باسل، وطالب للباطل، وجهم جهنمي، وأشقر سقري، وأنمش أفعواني....»(٣).

أقسام الجيش وحركته:

وكانت جيوشهم تتكون من مقدمة وميمنة وميسرة وقلب، وكان الرجّالة يحيطون بالفرسان، والفرسان يرفعون العلم في وسطهم «على عجلة هو مغروس فيها، وهي تسحب بالبغال، وهم يذبون عن العلم، وهو عال جداً كالمنارة، خرقته بياض ملمع بحمرة على شكل الصلبان»(٤).

وهم في الغالب لا يستجيبون للاستفزازات الجانبية التي تتعرض لها جيوشهم، بل كانت تلك الجيوش تمضي في طريقها إلى أهدافها غير آبهة بها، وقد وصف العماد الكاتب أحد هذه المشاهد قائلاً: «.... وأحاط العسكر الإسلامي بجوانبهم، وكدر عليهم صفو مشاربهم، وفلل مضاء مضاربهم، وهم في مواضعهم واقفون، وعلى مصارعهم عاكفون، أو في مواطنهم ثابتون، وعلى مواطئهم نابتون، كالبنيان المرصوص ما فيه خلل، والحلقة المفرغة ما إليها مدخل...»(٥).

---

(١) ابن الديباجي: رسائل عن الحرب والسلام: ص٩٧.

(٢) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص٧٦.

(٣) العماد الكاتب: الفتح القسي في الفتح القدسي: ص٣٣٠.

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص١٤٩.

(٥) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص٢٩٩.

ووصف أسامة بن منقذ حذرهم الشديد قائلاً: « . . . وقد حاربت الفرنج – خذلهم الله – في مواقف ومواطن لا أحصي عددها كثرة، فما رأيتهم قط كسرونا فلجّوا في طلبنا، ولا يزيدون خيلهم عن الخبب والنقل، خوفاً من مكيدة تتم عليهم»(١).

ووصف الناثرون فرسان الفرنج، فأثنوا على شجاعتهم وصبرهم في الحرب، وفي ذلك يقول أسامة بن منقذ: «والإفرنج – خذلهم الله – ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا تقدمة ولا منزلة عالية إلاّ للفرسان . . .»(٢) فهذا فارس منهم حمل على أربعة فرسان من المسلمين وهزمهم(٣)، وهذا فارس آخر حمل على عسكر المسلمين حتى توسطهم، فقتلوا حصانه، وأثخنوه بالجراح، ثم واصل القتال – وهو راجل – حتى عاد إلى أصحابه(٤). وذاك فارس إفرنجي يستولي بمفرده على «مغار معلقة لا يوصل إليها في وسط الجبل»(٥).

وصور الناثرون رجّالة الفرنج شجعاناً يضحون بأرواحهم دفاعا عن قومهم وعقيدتهم، وقد وصف ابن شداد رجالة الفرنج في أثناء حصار عكا قائلاً: « . . . . واشتد الزحف في ذلك اليوم، ولم يساعده (صلاح الدين) العسكر في ذلك اليوم على العدو، فإن الرجالة من الفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم، وهجم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم، فثبتوا وذبوا غاية الذبّ، ولقد حكى بعض من دخل عليهم أسوارهم أنه كان هناك راجل واحد فرنجي، وأنه صعد سور خندقهم، واستدبر للمسلمين، وإلى جانبه جماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون خندقهم، وقال: إنه وقع فيه زهاء خمسين سهماً وحجراً وهو يتلقاها، ولا يمنعه ذلك عما هو بصدده

---

(١) أسامة بن منقذ: العصا: ص ٢٥٩.

(٢) المصدر السابق: ص٦٤.

(٣) المصدر السابق: ص٦٧-٦٨.

(٤) المصدر السابق: ص٦٩.

(٥) المصدر السابق: ص٧٠.

من الذب والقتال حتى ضربه زراق مسلم بقارورة نفط فأحرقه»[١].

كما روى اسامة بن منقذ أن رويجلاً إفرنجياً قد هزمه هو وفارس آخر، بعد أن هزما ثمانية فرسان من الإفرنج[٢].

ووصف الناثرون قادة الصليبيين وملوكهم بصفات عديدة متنوعة فاعترفوا لهم بالشجاعة، وشدة البأس، وسعة الحيلة، والمكر والدهاء، والهيبة، والسطوة، والرغبة الشديدة في إيقاع الأذى بالمسلمين، فقد وصف أبو شامة القائد الصليبي[٣] الذي واجه نور الدين محمود في معركة إنّب[٤] سنة ٥٤٤هـ وقتل فيها بأنه «من أبطال الفرنج المشهورين بالفروسية، وشدة البأس، وقوة الحيل، وعظم الخلقة، مع اشتهار الهيبة، وكثرة السطوة، والتناهي في الشر...»[٥].

وكذلك كان ملك الانكتار (الانجليز) «شديد البأس بينهم، عظيم الشجاعة، قوي الهمة، له وقعات عظيمة، وله جسارة على الحرب، وهو دون الفرنسيس (ملك فرنسا) عندهم في الملك والمرتبة، لكنه أكثر مالاً، وأشهر في الحرب والشجاعة»[٦].

أمّا الملك الفرنسي فكان مقدماً ومحترماً من قبل ملوك الفرنج، وإذا حضر إلى الشام انصاعت إليه عساكرهم كلها، وكان الفرنج يتوعدون المسلمين بقدومه كما يقول ابن شداد: «وكان عظيماً عندهم، مقدماً محترماً من كبار ملوكهم، ينقاد إليه الموجودون في العسكر بأسرهم، بحيث إذا حضر حكم على الجميع، ولم يزالوا يتوعدوننا بقدومه»[٧].

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص١٦٧.

(٢) أسامة بن منقذ: الاعتبار :ص٥٨.

(٣) وهو ريموند أمير انطاكية Reymond, Prince of Antioch، وقد ذكر الأدباء لقبه فقط (البرنس).

(Hery Treece : The Crusades, P.178)

(٤) حصن من أعمال عزاز من نواحي حلب (ياقوت: معجم البلدان: ج١: ص٢٥٨).

(٥) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق١: ص١٥٠.

(٦) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص١٥٧.

(٧) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص١٥٧.

أمّا مركيس صور فكان «رجلاً عظيماً ذا رأي وبأس شديد في دينه، وصرامة عظيمة»(١).

كما وصف الناثرون لجوء بعض قادة الفرنج إلى استعمال الحيلة والدهاء لتحقيق أهدافهم، ومن ذلك لجوء فريدريك الثاني إلى استعطاف الملك الكامل، واقناعه بالوفاء بوعده بتسليمه القدس وقوله له «.. أنا عتيقك، وتعلم أني أكبر ملوك الفرنج، وأنت كاتبتني بالمجيء، وقد علم البابا والملوك باهتمامي، فإن رجعت خائباً انكسرت حرمتي ....»(٢). فنجحت حيلته وتنازل له الكامل عنها(٣).

ولكن هذه الصفات الرفيعة لقادة الفرنج امتزجت – في نظر الأدباء بصفات ذميمة كادت تطمسها، فقد وصموهم بالغرور، والغدر، والوحشية والجهل والظلم.... فمن أمثلة غرورهم أنه «لمّا قيل لصاحب أنطاكية – وهو على دمشق–، قد قتل المسلمون أصحابك، قال: ما هو صحيح! قد تركت بكفر طاب مائة فارس تلتقي المسلمين كلهم»(٤).

وركز الناثرون على صفة الغدر عندهم، وجعلوها من سماتهم الثابتة، فالعهد لا قيمة له عندهم في حال قوتهم، وهم يحافظون عليه فقط في حال ضعفهم، وفي ذلك يقول القاضي الفاضل عن ملك الانجليز الذي غدر بأسارى المسلمين في عكا بعد أن تسلم البلد منهم بالأمان، وأمّنهم على نفوسهم في جميع الأحوال(٥): «... كيف يشنع ملك انكلتره بالغدر، وهو – لعنه الله – قد أتى بأقبح الغدر وأفحشه في أهل عكا نهارا جهارا، وشهد فيها بخزيه وفضيحته المسلمون والنصارى، وغدر الفرنج معلوم...، القوم هادنوا لما ضعفوا، ويفجرون إذا قووا...»(٦).

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص٩٨.

(٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب: ج٥: ص١١٨.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب: ج٤: ص٢٤١-٢٤٦، وابن الأثير :الكامل: ج١٠: ص٤٨١.

(٤) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص١١٥.

(٥) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص١٧٤.

(٦) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص٢٠٣.

ووصف ابن الأثير جوسلين[١] صاحب الرّها بأنه كان «كثير الغدر والمكر، لا يقف على يمين، ولا يفي بعهد، طالما صالحه نور الدين وهادنه، فاذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر....»[٢].

ووصفوا بعضهم بالتردد والخوف، فهذا صاحب غزة الصليبي قد جمع الجيوش وحشد الحشود لمواجهة جيش صلاح الدين، ولكنه جبن عن ذلك وملأ الله «قلبه رعباً، وثنى صدقه كذباً، ولم يزل يخاتل ولا يقاتل، ويواصل المسير ولا يصاول، والقتل في أعقابه، وأيدي السيوف وسواعد الرماح لا تني في عقابه، حتى تحصل في الدير هو وخيله ورجله...»[٣].

وفي معركة حطين لاذ قومص طرابلس بالفرار عندما احتدمت المعركة، وأيقن بالهزيمة، فولى «مغذّاً في فراره، حاسداً للطير على مطاره، وقد ألبسه الخوف ثوب السقم، وأغراه بتتبع الوهاد والأكم، فلم يَرَ وهدة إلاّ طلبها طلب الاكتتام، ولا أكمة إلاّ ارتقاها طلب الاعتصام...»[٤].

وقد وصل الإزراء بقادة الفرنج -أحياناً- إلى حد السباب والشتم والتحقير التي تنم عن كره متأصل في النفس عند بعض الكتاب، ومن ذلك وصف العماد الكاتب للمركيس صاحب صور إذ يقول: «.. وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر، وأغوى شياطينه، وأضرى سراحينه، وأحبث ذئابه، وأنجس كلابه، وأنهش صلاله، وأفحش ضلاله، وأعوى أعوانه، وأخون إخوانه، وأبغى بغاته، وأجفى جفاته، وأرعى حماته، وأحمى رعاته، وشر شراره، وأنكر نكاره، وأفجر فجاره، وأروغ ثعالبه، وألسب عقاربه، وأحنث معاهديه، وأنكث معاقديه...»[٥].

---

(١) هو القمص (أو القومص) جوسلين الثاني (Joscelin II) صاحب الرها، وقد أسره نور الدين محمود، وقتله، وكان شديد الأذى للمسلمين (انظر الروضتين: ج١: ق١: ص ١٨١.
و(K.M. Setton (ed): A History of the Crusades, pp. 517, 533)

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر: ص١٠٢. وانظر أمثلة أخرى من غدرهم في كتاب الاعتبار: ص٣٤-٣٥، ٦٥-٦٦.

(٣) أبو شامة: الروضتين: ج١: ق٢: ص٤٩٠.

(٤) رسائل ابن الأثير: ص ٦٨ (تحقيق القيسي وناجي).

(٥) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص١٠٩.

وصوَّر الناثرون غيرة الفرنج على عقيدتهم، وإخلاصهم في حربهم، وصبرهم على أهوالها، وتفانيهم في الحفاظ على ما بأيديهم من بلاد المسلمين، ومحاولتهم استعادة ما حرر منها، وفي ذلك يقول العماد الكاتب: « . . قد بُلي الإسلام منهم بقوم قد استطابوا الموت، واستجابوا الصوت، وفارقوا المحبوبين: الأوطان والأوطار، وهجروا المألوفين: الأهل والديار، وركبوا اللجج، ووهبوا المهج، كل ذلك طاعة لقسيسهم، وامتثالاً لأمر مركيسهم، وغيرة لمتعبدهم، وحمية لمعتقدهم، وتهالكاً على مقبرتهم، وتحرقاً على قمامتهم، لا يطلبون مع شدة الإملاق مالا، ولا يجدون مع كثرة المشاقّ ملالا، بل يتساقطون على نيران الظبا تساقط الفراش، ويقتحمون الردى متدرعين الصبر متثبتي الجأش. . . . »(١).

ووصف الناثرون براعتهم في القتال ومهارتهم في الفنون الحربية، فهم لا يعتمدون على أسلوب واحد في القتال، بل لهم أساليب متنوعة في المعركة الواحدة، وفاقاً لمتطلبات المواقف العسكرية التي يواجهونها، وفي ذلك يقول القاضي الفاضل« . . ولهم – خذلهم الله – تنوع في المكايدة، فإنهم قاتلوا مرة في الأبرجة(٢) وأخرى بالمنجنيقات(٣) وثالثة بالدبابات(٤)، ورابعة بالكباش(٥)،

---

(١) أبو شامة: الروضتين: ج٢ :ص١٦١-١٦٢.

(٢) البرج: آلة ضخمة مرتفعة تصنع من الخشب والحديد، تغطى بالجلود المسقاة بالخل، حتى لا تنفذ فيها النيران، وهي تسير على عجلات، وتتسع لخمسمائة مقاتل، وسطحها يتسع لأن ينصب عليه منجنيق، وقد استخدمها الفرنج في حصار عكا. (ابن شداد: النوادر السلطانية: ص١٢٠).

(٣) مفردها منجنيق: وهو آلة من آلات الحصار القديمة، يقوم مقام المدفع في هذا العصر، وقذائفه من الحجارة وقد وصفه القلقشندي بانه «آلة من خشب له دفتان قائمتان، بينهما سهم طويل، رأسه ثقيل، وذنبه خفيف، تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر يجذب حتى ترفع أسافله لأعلى أعاليه، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج منه الحجر، فما أصاب شيئاً إلاّ أهلكه (صبح الأعشى: ج٢ :ص١٥٢).

(٤) مفردها دبابة: وهي آلة تتخذ من الجلود والخشب، ويدخل فيها الجنود، ويتقدمون بها نحو الحصون لنقبها فتقيهم ما يرمون به من فوقهم (اللسان: مادة: دبب).

(٥) مفردها كبش: وهو آلة لها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد، ينطح بها السور بشدة عظيمة لأنه يجرها خلق عظيم فتهدمه بتكرار نطحها، وهي توضع عادة في مقدمة الدبابة (النوادر السلطانية: ص١٤٠-١٤١).

وأخرى باللوالب[١]، ويوماً بالنقب، وليلة بالسرابات[٢] وطوراً بطم الخنادق، وآناً بنصب السلالم، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار، وحالة في البحر بالمراكب . . . . »[٣].

ووصف الناثرون سرعة إنجاد أوروبا للفرنج في بلاد الشام، وكثرة إمدادهم لهم، وفي ذلك يقول القاضي الفاضل مصورا سوء أحوال المسلمين المحاصرين في عكا بسبب ذلك : « ومن خبر الكفار أنهم الآن على عكا يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه، ويخرج منه للمسلمين ما هو أمرّ من أجاجه[٤]، وقد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضوا إليهم من كل فرقة طائفة، ويرسلوا إليهم من كل سلاح شوكة، فإذا قتل المسلمون واحداً في البر بعثوا ألفاً عوضه في البحر، فالزرع أكثر من الحصاد، والثمرة أنمى من الجداد ».

ووصف العماد الكاتب كثرة إمداداتهم، فقال : « . . وليس هذا العدو بواحد فينجح فيه التدبير، ويأتي عليه التدمير، وإنما هو كل من وراء البحر، وجميع من في ديار الكفر، فإنه لم يبق لهم مدينة، ولا بلدة ولا جزيرة، ولا خطة صغيرة أو كبيرة، إلا جهزت مراكبها، وأنهضت كتائبها، وتحرز ساكنها، وبرز كامنها، وثار ثائرها، وسار سائرها، وطار طائرها، ونقضت خزائنها، وأنفضت معادنها، وحملت ذخائرها، ونثلت كنائن كنائسها، واستخرجت دفائن نفائسها، وخرج بصلبانها أساقفها وبطاركتها، وغصت بالأفواج فجاج ومسالكها . . . . ».

ووصف الفاضل كثرة إمداداتهم وسرعة إنجادهم في رسالة كتبها على لسان

---

(١) اللوالب : هي خطاطيف بحرية، كان البحارة يستعملونها للرمي على مراكب العدو لجذبها نحوها، وشدها للعبور إليها عن طريق ألواح خشبية أو سلالم من الحبال لمقاتلة ملاحيها.

(السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر المتوسط : ج١ : ص١٤١).

(٢) جمع سربة وهي جماعة من الجند ينسلون من العسكر فيغيرون على الأعداء ويرجعون. والجماعة من الخيل ما بين العشرة إلى الثلاثين، أو من العشرين إلى الثلاثين (لسان العرب والقاموس المحيط : مادة : سرب).

(٣) ابن واصل مفرج الكروب : ج٢ : ص٣٥٣.

(٤) الأجاج : الماء المالح (القاموس المحيط : مادة أجج).

صلاح الدين إلى صاحب المغرب في أثناء حصار عكا، فقال: « . . فرغ الكفار بالشام استصرخ بأصل الكفار من الغرب، فأجابوهم رجالاً وفرساناً، وشيباً وشبابا، وزرافات ووحدانا، وبراً وبحراً، ومركبا وظهرا، وركبوا إليهم سهلاً ووعراً، وبذلوا ماعوناً وذخراً، وما احتاجوا ملوكاً ترتادهم، ولا أرساناً تقتادهم، بل خرج كل يلبي دعوة بطركه، ولا يحتاج إلى عزمة ملكه »(١).

وقد وصف الناثرون الأسلحة الخفيفة التي كان يستخدمها جنود الفرنج في حروبهم مثل السيف والرمح والدرع والترس والقوس والسهم والنشاب والجرخ(٢) وغيرها.

ووصفوا – أيضاً – الآلات الثقيلة التي استخدمها العدو في حروبه – آنذاك – وما أثارته – أحياناً – من فزع في نفوس المسلمين، وما أثاره إحراقها وتدميرها في نفوسهم من فرح وابتهاج، فقد استخدم الفرنج في أثناء حصارهم لعكا الآلات الثقيلة لدك سورها المنيع، ولاختراق دفاعاتها الحصينة، واتخذوا « من الآلات العجيبة والصنائع الغريبة ما أهال الناظر إليه من شدة الخوف على البلد، واستشعر أخذ البلد من تلك الآلات وخيف منها عليه »(٣).

فقد صنع العدو « ثلاثة أبرجة من خشب وحديد، وألبسها الجلود المسقاة بالخل على ما ذكر بحيث لا تنفذ فيها النيران، وكانت هذه الأبراج كأنها الجبال . . . . وهي مركبة على عجل، يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر على ما قيل، ويتسع سطحها لأن ينصب عليه منجنيق، وكان ذلك قد عمل في قلوب المسلمين ، وأودعها من الخوف على البلد ما لا يمكن شرحه، وآيس الناس من البلد بالكلية، وتقطعت قلوب المقاتلة فيه »، وقد ضرب كل واحد من هذه الأبراج بقدر

---

(١) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص١٥٧، ١٤٩، ١٧٢ والجداد: قطع الثمر (اللسان: مادة جدد).

(٢) الجرخ: مأخوذة عن الفارسية (Tcharkh) والجمع جروخ: وهو نوع من القوس الرامي الذي ترمى عنه النشاب أو النفط (Dozy : Supp. Dict. Arab: p.p182 Tome I).

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص١٤٠.

مليء بالنفط والمواد الاخرى الحارقة فاحترقت الواحد تلو الآخر، «فغشي الناس من السرور والفرح ما حرك ذوي الأحلام والنهى منهم حركة الرعناء»[١].

ثم نصب الفرنج على عكا بعد ذلك «منجنيقات هائلة حاكمة على السور، وإنّ حجارتها تواترت حتى أثرت في السور أثراً بيناً، وخيف من غائلته»، فضربها المدافعون عن عكا بسهام جرخ عظيم مشتعلة، فاحترقت جميعها. «وكان يوماً عظيماً اشتد فيه فرح المسلمين وساءت عاقبة الكافرين»[٢].

كما قدم ابن شداد وصفاً دقيقاً ونادراً لأنواع أخرى من الأسلحة التي استخدمت لهدم سور عكا الحصين كالدبابة والكبش والسنور، فقال: «فمما أحدثوه آلة عظيمة تسمى دبابة يدخل تحته من المقاتلة خلق عظيم، ملبسة بصفائح الحديد، ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل، وفيها المقاتلة، حتى ينطح بها السور، ولها رأس عظيم برقبة شديدة من حديد، وهي تسمى كبشاً، ينطح بها السور بشدة عظيمة، لأنه يجرها خلق عظيم فتهدمه بتكرار نطحها، وآلة أخرى: وهي قبو فيه رجال، يسحب كذلك إلاّ أنّ رأسها محدد، على شكل السكة التي يحرث بها، ورأس الكبش مدور، وهذا يهدم بثقله، وتلك تهدم بحدتها وثقلها، وهي تسمى سنّورا....»[٣].

كما وصف الأدباء - أيضاً - القطع البحرية المختلفة للأسطول الفرنجي التي شاركت في تلك الحروب، وابتهاج المسلمين عند إغراق بعضها[٤].

وأسهمت المرأة الفرنجية في الحروب الصليبية، «وقد لاحظ الأدباء ثلاثة انواع من النساء هي: المرأة الحاكمة، والمرأة المقاتلة، والعجائز، وقد قام كل منهن بدور في الحرب»[٥].

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص١٢٠-١٢١.

(٢) المصدر السابق: ص١٣٦.

(٣) المصدر السابق: ص١٤٠-١٤١.

(٤) المصدر السابق: ص١٤٣، ١٥٤، ١٩٦.

(٥) عبد القادر أبو شريفة: صورة الصليبيين في الأدب العربي: ص٩٢.

فقد شاركت بعض النساء الحاكمات القادمات من أوروبا بالحرب بجيشها في القتال، ووصف العماد الكاتب ذلك قائلا: « .. ووصلت - أيضاً - في البحر امرأة كبيرة القدر، وافرة الوفر، وهي في بلدها مالكة الأمر، وفي جملتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم وغلمانهم وأشياعهم وهي كافلة بكل ما يحتاجون إليه من المؤونة، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة، وهم يركبون بركباتها، ويحملون بحملاتها، ويثبون لوثباتها.... »(١).

وتزيّت بعض نساء الفرنج العاديات بأزياء الفرسان فلبسن الدروع، وحملن السلاح واشتركن في القتال إلى جانب فرسانهم، وقد وصف العماد الكاتب ذلك قائلاً: « .. وفي الفرنج نساء فوارس، لهن دروع وقوانس، وكُنَّ في زي الرجال، ويبرزن في حومة القتال، ويعملن عمل أرباب الحجا، وهن ربات الحجال.... »(٢). وكُنَّ يخرجن إلى الحرب بلباس الحرب وهن مقنعات حتى لا يعرفن بأنهن نساء، « وذوات المقانع من الفرنج مقنعات مقارعات، يحملن إلى الطعان الطوارق والقنطاريات »(٣).

وكانت عدة منهن « يقاتلن على الخيل »(٤)، وقد تمكن المسلمون من قتل بعضهن في أثناء حصار عكا إذ يقول العماد: « .... وفي يوم الوقعة قلعت منهن نسوة، لهن بالفرسان أسوة، وفيهن مع لينهن قسوة، وليست لهن سوى السوابغ كسوة، فما عرفن حتى سلبن وعرين، ومنهن عدة استبين واشترين »(٥). وكانت بعضهن يجدن الرمي ويجرحن المقاتلين، فقد رؤيت امرأة فرنجية « ترمي بقوس من خشب، حتى جرحت جماعة، ثم قتلت وحملت إلى السلطان، فعجب من ذلك »(٦).

---

(١) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص٣٤٩، وانظر: أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص١٦٢.

(٢) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص٣٤٩.

(٣) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص١٦٢.

(٤) ابن الأثير: الكامل: ج١٠: ص١٨٧.

(٥) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص٣٤٩. وانظر: أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص١٦٢.

(٦) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص١٨٦.

وأما العجائز فقد كُنَّ يحرضن الرجال على القتال، وفي ذلك يقول العماد: «وأما العجائز، فقد امتلأت بهن المراكز، وهن يشددن تارة ويرخين، ويحرضن وينخين، وقلن: إن الصليب لا يرضى إلا بالإباء، وأنه لا بقاء له إلاّ بالفناء....»(١).

وصف القلاع والحصون:

اهتم الصليبيون بالتحصينات الدفاعية للاحتماء بها من هجمات المسلمين، فأقاموا الحصون المنيعة، والقلاع في المواقع المهمة، وفوق قمم الجبال العالية، فوصف الكتاب هذه التحصينات القوية، وما نال المسلمين منها من أذى شديد، وما بذلوه من جهد وتضحيات في حصارها وفتحها.

وقد وصف القاضي الفاضل حصن الكرك بأنه شوكة في حلوقهم، وقذى في عيونهم، لأنه كان مرصداً لحركات المسلمين، ومنطلقاً للهجوم على قوافلهم السائرة بين مصر والشام أو بين الشام والديار المقدسة، مما منع كثيراً من المسلمين من تأدية فريضة الحج، فقال: «.. هو شجا في الحناجر، وقذى في المحاجر، قد أخذ من الآمال بمخنقها، وقعد بإرصاد العزائم وطرقها، وصار ذئباً للدهر في ذلك الفج، وعذراً لتارك فريضة الله من الحج...»(٢).

ووصف العماد الكاتب حصن كوكب قائلاً: «وجئنا إلى كوكب، فوجدناها في مناط الكوكب، كأنها وكر العنقاء، ومنزل العواء، وقد نزلتها كلاب عاوية، ونزغت بها ذئاب غاوية....»(٣).

ووصف ابن شداد قلعة صهيون المنيعة فقال: «.. وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل، خنادقها أودية هائلة واسعة عظيمة، وليس لها خندق محفور إلاّ من جانب واحد، مقدار طوله ستون ذراعا ولا يبلغ، وهو نقر في حجر، ولها ثلاثة أسوار، سور دون ربضها، وسور دون القلة، وسور القلة....»(٤).

---

(١) العماد الكاتب: الفتح القسي: ص٣٤٩.

(٢) أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص٥٥.

(٣) المصدر السابق: ج٢: ص١٣٦.

(٤) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص٩٠.

وصوَّر الفاضل قلعة حمص التي فتحها صلاح الدين سنة ٥٧٠هـ في رسالة بعث بها إلى الشيخ زين الدين بن نجا[١]، نجماً في السماء، وعقاباً فوق قمة جبل شاهق، ورأساً تعمم بالسحاب، وأنملة والهلال قلامتها عند الأصيل، وهي تربض على رأس الجبل بثبات كالمحتبي، وهي لقوتها وحصانتها لا تخشى أن يروعها أحد أو يقتحمها، حتى رماها صلاح الدين بالمنجنيقات وفتحها، فقال: «والشيخ الفقيه قد شهد ما يشهد به من كونها نجماً في سحاب، وعقاباً في عقاب، وهامة لها الغمامة عمامة، وأنملة اذا خضّبها أصيل كان الهلال منها قلامة، عاقدة حبوة صالحها الدهر على ألاّ يحلها بفرعه، عاهدة عصمة صافحها الزمن على الاّ يروعها بخلعه، فاكتنف بها عقارب منجنيقات لا تطبع طبع حمص في العقارب، وضربت حجارة بها الحجارة فأظهرت فيها العداوة المعلومة بين الأقارب، فلم يكن غير ثالثة من الحد إلاّ وقد أثرت فيها جُدريا بضربها، ولم تصل السابع إلاّ والبحران منذر بنقبها، واتسع الخرق على الراقع، وسقط سعدها عن الطالع، إلى مولد من هو إليها الطالع، وفتحت الأبراج فكانت أبوابا، وسيرت الجبال فكانت سرابا، فهنالك بدت نقوب يرى القائم من دونها ما وراءها، وحشيت فيها النار، فلولا الشعاع من الشعاع أضاءها....»[٢].

ولم يقف الأمر لدى الناثرين عند وصف القلاع والحصون، بل قام بعضهم بتأليف كتاب كامل عنهما، إذ ألف أسامة بن منقذ كتاباً سماه «تاريخ القلاع والحصون»[٣]، وقد دوّن في هذا الكتاب الحوادث إلى سنة (٥٦٦هـ/ ١١٧٠م)، ولم يرتب مادته ترتيباً زمنياً، بل خص كل حصن بمقالة مستقلة[٤].

---

(١) من علماء المسلمين المشهورين، عاش في زمن صلاح الدين، واتصل به، فكان صلاح الدين يستشيره ويسمع مواعظه، وقد أسهم في كشف المؤامرة التي اشترك فيها عمارة اليمني ضد صلاح الدين بمصر لإعادة الحكم الفاطمي إليها (أبو شامة: الروضتين: ج٢: ص٥٧-٥٩).

(٢) الروضتين: ج١: ق٢: ص٦١٢.

(٣) فيليب حتي: مقدمة الاعتبار: ص ق.

(٤) محمد أحمد حسين: أسامة بن منقذ (صفحة من تاريخ الحروب الصليبية): ص١٠١.

معاملة الفرنج للأسرى:

صوَّر الأدباء وحشية الفرنج في حروبهم هذه، فقد فتكوا بالمدنيين الأبرياء فتكاً ذريعاً، وعاملوا من بقي منهم على قيد الحياة بقسوة بالغة.

وقد وصف ابن جبير حال الأسرى المسلمين المفجعة لدى الفرنج في عكا قائلاً: «.. ومن الفجائع التي يعانيها من حل بلادهم أسرى المسلمين، يرسفون في القيود، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والأسيرات المسلمات كذلك في أسواقهن خلاخيل الحديد، فتنفطر لهم الأفئدة، ولا يغني الإشفاق عنهم شيئا...»[1].

وقد وصف أسامة بن منقذ ما جرى لفارس مسلم وقع في الأسر قائلا: «... وعذبوه أنواع العذاب، وأرادوا قلع عينه اليسرى، فقال لهم دنكري[2] – لعنه الله –: اقلعوا عينه اليمين، حتى إذا حمل الترس استترت عينه اليسار، فلا يبقى يبصر شيئا، فقلعوا عينه اليمين، كما أمرهم، وطلبوا منه ألف دينار، وحصاناً أدهم....» فدية له بعد ذلك، مع أن دنكري نفسه كان من قبل قد أعطاه الأمان إذا وقع في الأسر[3].

وكان الفرنج – أحياناً – يقطعون السابلة، فيأسرون من يقع في أيديهم من المسافرين أو الخارجين للصيد ويحبسونهم لديهم حتى يؤدوا الفدية، فعندما وقع ابن والي الطور الذي خرج للصيد في أيديهم حبسوه منفرداً في جب، وطالبوه بألفي دينار فدية، دون أن يسمحوا له بالاتصال بأحد!!، وقد وصف ما حدث له قائلا: «... خرجت أتصيد، فوقع بي قوم من الإفرنج، فأخذوني ومضوا بي إلى بيت جبريل[4]، فحبسوني في جب وحدي، وقطع علي صاحب بيت جبريل

---

(١) رحلة ابن جبير: ص٢٨٠.

(٢) هو: Tancred صاحب أنطاكية – آنذاك – (فيليب حتي: الاعتبار :ص٦٥).

(٣) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ص٦٦.

(٤) قرية في منتصف الطريق بين غزة والقدس (ياقوت: معجم البلدان: ج١: ص٥١٩).

ألفي دينار، فبقيت في الجب سنة لا يسأل عني أحد...[١]» كما أسروا بدوياً سائراً في الطريق، وألقوه في الجب عنده[٢].

وعندما استولى الفرنج على عكا غدر ملك الانكتار[*] بأسارى المسلمين، وكان قد صالحهم، وتسلم البلد منهم «على أن يكونوا آمنين على نفوسهم على كل حال، وإنه إن دفع السلطان إليهم ما استقر؛ أطلقهم بأموالهم وذراريهم ونسائهم، وإن امتنع من ذلك ضرب عليهم الرق، وأخذهم أسارى، فغدر بهم الملعون، وأظهر ما كان أبطن... ثم أحضروا (الفرنج) من الأسارى المسلمين من كتب الله شهادته في ذلك، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم في الحبال، وأوثقوهم في الحبال، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد، فقتلوهم صبراً طعناً وضرباً بالسيف – رحمة الله عليهم –...»[٣].

أمّا من بقي من السكان المسلمين في عكا تحت أيدي الفرنج، فقد تعرّض – كما يقول ابن جبير – لمشقات وأهوال يعانيها في بلادهم: «منها الذلة والمسكنة الذميمة، ومنها سماع ما يفجع الأفئدة من ذكر من قدّس الله ذكره، وأعلى خطره، لا سيّما من أراذلهم وأسافلهم، ومنها عدم الطهارة، والتصرف بين الخنازير، وجميع المحرمات، إلى غير ذلك مما لا ينحصر ذكره، ولا تعداده....»[٤].

---

(١) أسامة بن منقذ: الاعتبار: ٨٠.

(٢) المصدر السابق: ص٨٠ – ٨١.

(*) يعني ملك الانجليز.

(٣) ابن شداد: النوادر السلطانية: ص١٧٤.

(٤) رحلة ابن جبير: ص٢٧٩ – ٢٨٠.